امرأة أرسين

مغامرات أرسين لوبين

# امرأة أرسين

الكاتب الفرنسي المعروف
موريس لبلان

ترجمة
يوسف أبو الحجاج

# 1 أرسين فى العشرين من عمره

ترك راوول داندريزى دراجته وراء منحدر تغطيه الأعشاب، ودقت ساعة الأبراشية حينئذ ثلاث دقات.

فسار على قدميه فى الطريق الموصل إلى قصر البارون ديتج، ولما بلغ القصر وقف ينصت هنيهة فطرق سمعه صهيل جواد أعقبه صوت عربة تتقدم وأجراس تدق.

وفتح مصراعا الباب فجأة ومرقت منه عربة سمع راوول فيها صوت رجال يتحدثون، ولمح فوهة بندقية وسرعان ما اختفت العربة فى طريق إتريتا.

وتمتم راوول يحدث نفسه:

– لم أكن أعرف أن صيد الطيور يحلو فى الليل، إن مكان الصيد بعيد، فلأنتهز هذه الفرصة لأعرف سبب خروج البارون فى هذه

الساعة المتأخرة.

ودار حول القصر، ولما بلغ الحائط الخلفى تقدم أربع خطوات ثم توقف.

وكان فى يده مفتاحان ففتح بأحدهما بابًا منخفضًا، وصعد درجًا منحوتًا فى الجدار، أما المفتاح الثانى فقد فتح به بابا سريًّا أفضى إلى الطابق الأول.

أخرج مصباحه الكهربائى، وسلط نوره حوله بدون حذر، لأنه كان يعلم أن الخدم يقيمون فى الجناح الآخر من القصر، وأن كلاريس ديتيج، الابنة الوحيدة للبارون تقيم فى الطابق الثانى، واجتاز رواقًا فى آخر غرفة مكتب البارون، وكان قد دخلها مرة قبل هذه منذ أسابيع قلائل، وطلب من البارون يد ابنته فقوبل أسوأ مقابلة وطرد شر طردة وخيل إليه أن ذكراها لن تبرح مخيلته طالما بقى على قيد الحياة.

ورأى وجهه فى المرآة، كان وجه شاب فى مقتبل العمر، شاحب اللون، ولكنه مع ذلك، ورغم ما كان يشعر به من انفعال واضطراب فقد استطاع أن يكبح جماح نفسه وأن يقوم بالمهمة التى جاء من أجلها ببرود ورباطة جأش.

لم تأخذ منه هذه المهمة وقتًا طويلاً فإنه أثناء زيارته الأولى للبارون، أولى المكتب كل اهتمامه، وعرف المخابئ التى يمكن إخفاء الأشياء فيها، فما هى إلا لحظات حتى عثر فى شق على رسالة مكتوبة على ورق رقيق جيد، ملفوفة كالسيجارة، وكانت من غير توقيع، ومن غير عنوان.

فحص راوول الرسالة، ولما قرأها استحمق صاحبها لأنه أخفاها بكل تلك العناية، ولكنه بعد أن استبعد بضع كلمات وضعت للتضليل قرأ ما يلى:

(وقعت على آثار عدوتنا فى روان، فنشرت فى الجرائد المحلية خبرًا مؤداه أن فلاحًا بقرية إترتيا عثر فى أراضيه على شمعدان نحاس بسبعة فروع، فأبرقت صاحبتنا على الفور إلى حوزى إترتيا وطلبت منه أن يرسل إليها عربة فى محطة فيكامب فى الساعة الثالثة من اليوم الثانى عشر.

ولكنى سأبرق إلى الحوزى فى صباح ذلك اليوم وأقول له عن لسانها (إننى عدلت عن المجئ إلى القرية)، وعليه فإن عربتك هى التى ستنتظرها فى محطة فيكامب، فاعمل على أن تقودها إلى قصرك تحت

حراسة جيدة فى الوقت الذى سنعقد فيه اجتماعنا.

(سوف نقوم بمحاكمتها عندئذ وتنطق بالحكم ضدها، وسيكون حكمًا قاسيًا صادقًا وعادلاً فى نفس الوقت، وسننفذ الحكم فى التو، ففى العصر الذى كانت فيه الغاية تبرر الوسيلة كان العقاب ينفذ بسرعة، تذكر اتفاقنا الأخير، وتذكر أن نجاح مشروعنا ونجاة أرواحنا متعلقان بهذه (السفاكة الجهنمية) فتوخ الحذر، وتظاهر بأنك خارج للصيد حتى نكون بعيدين عن كل ريب وفطنة، سأحضر أنا واثنان من أصدقائنا بطريق الهافر فى تمام الساعة الرابعة، لا تتلف هذه الرسالة فأستردها منك عند قدومى).

***

قال راوول محدثًا نفسه بعد أن فرغ من قراءة الرسالة:

(الإفراط فى الحذر يعرض صاحبه للهلاك، فلو أن كاتب هذه الرسالة اطمأن ولم يتحرز لحرقها البارون ولما عرفت بمحاولة الاختطاف التى سيقومون بها ومحاكمتهم غير القانونية، ولما علمت شيئًا عن الجريمة التى يدبرونها فى الخفاء.. يا إلهى! ما كنت أظن أن صهرى المقبل ضليع فى عالم الإجرام.

وفرك يديه وشعر بسرور كبير يغمر قلبه، فقد راقت له هذه المسألة، واسترعت اهتمامه بضع نقاط لاحظها منذ أيام، وعقد العزم على أن يعود إلى الحانة التى يقيم فيها لينام، ثم يعود فى اليوم الثانى فى الميعاد المذكور فى الرسالة لكى يقف على حقيقة مؤامرة البارون ومدعويه، ولكى يعرف من هى هذه السفاكة الجهنمية التى حكموا عليها بالموت.

أعاد راوول الرسالة مكانها، ولكنه بدلا من أن يغادر القصر جلس أمام طاولة عليها صورة كلاريس، وأخذ يتأمل الصورة بعينان يفيضان بحب دفين.. كانت لفتاة فى الثامنة عشرة من عمرها، جذابة الملامح ذات شفتين رقيقتين ساحرتين وعينين حالمتين، وشعر أشقر جميل ووجه شاحب كان يزيدها جمالا وفتنة.

قست نظرته وغمرته فكرة شيطانية لم يستطع أن يتغلب عليها كانت كاريس بمفردها فوق، فى مسكنها المنعزل، وقد سبق واستخدم المفتاحين اللذين أعطتهما له وانضم إليها وقت تناول الشاى، فما الذى يمنعه اليوم، لم يكن فى الإمكان وصول أى صوت إلى الخدم ولن يعود البارون إلى آخر النهار دون شك، فلماذا ينصرف؟

ومع ذلك فقد وقف مترددًا أمام الباب، فهو إذا كان قد سبق

واجتازه فقد كان ذلك فى عز النهار، كصديق محترم رزين، فما المعنى من دخوله الآن فى هذه الساعة من الليل؟

معركة ضمير لم تطل، فلم يلبث أن طرق الباب ثلاث مرات، وهمس يقول:

- كلاريس.. كلاريس.. أنا راوول.

ومرت دقيقة، ثم فتح باب المخدع، وظهرت الفتاة وفى يدها مصباح، ولاحظ شحوب وجهها، وما ارتسم عليه من أمارات الفزع والهلع حين رأته، فارتبك وارتد إلى الوراء قائلا:

- لا تؤاخذينى يا كاريس.. إننى أتيت رغمًا عنى.. ما عليك إلا أن تنطقى بكلمة واحدة فأذهب.

لو أنها سمعت هذه الكلمات ووعتها لنجت ولا نتصرف على خصم رضى بالفشل مقدمًا، ولكنها لم تعها، وامتدت أمام بصرها غشاوة فلم تر شيئًا.

وأرادت ألا تظهر سخطها فتمتمت ببضع كلمات غير مفهومة، وأرادت أن تطرده فلم تجد القوة لكى تحرك ذراعها وترفعها، وسرت فى بدنها رعشة فألقت بالمصباح فوق طاولة بجوار الباب، وما كادت

تفعل حتى دارت حول نفسها ووقعت على الأرض مغمى عليها.

تحابا منذ ثلاثة شهور، فقد التقى بها أثناء إقامتها فى باريس مع صديقة لها، وشعر كلاهما بالميل نحو الآخر فى الحال، وأحبته الفتاة حبًّا ملك عليها مشاعرها وحواسها، فما رأته حتى خيل إليها أنه شاب غامض، مبهم، وأنها لن تفهمه مهما حاولت، أساءها استخفافه ومرحه وسخريته الشديدة ودعاباته اللاذعة، ولكن أعجبها منه جاذبيته ومرحه وخفة روحه.

ولما عادت إلى نورماندیا دهشت حين رأته ذات صباح منحنيًا فوق الجدار أمام نوافذ مخدعها، وأقام الشاب فى حانة قريبة تبعد عن القصر ببضعة كيلو مترات، وجعل يأتى كل يوم على دراجته، ويلتقى بكلاريس على مقربة من قصر ديتيج.

كانت كلاريس يتيمة الأم، ولم تكن تشعر بأية سعادة مع أبيها، فقد كان البارون قاسى القلب جاف العاطفة فخورًا بلقبه كما كان شجاعًا.

وكان عماله الذين يشتغلون فى مزرعته يخافونه ويرهبونه كما يرهب الإنسان شر عدو له، فلما جرؤ راوول وطلب منه يد ابنته ثارت ثائرته، وغلت مراجل غضبه على الشاب الصعلوك الأجرد الذى لا عمل

له ولا لقب، ولولا أن راوول رماه بنظرة باردة تقطر سخطًا لصفعه البارون ولشنع به أسوأ تشنيع.

حزنت كلاريس عندما علمت أن أباها طرد الشاب من مكتبه وأرادت أن تصالحه وترضيه فأتت بأكبر هفوة فى حياتها، وفتحت له باب مخدعها مرتين، فاستغل راوول هذا العمل البرىء الطاهر لتقوية حبه وتثبيت دعائمه.

فى ذلك الصباح ادعت أنها تشكو من صراع ولزمت غرفتها، وأمرت بإحضار طعام الغذاء إلى مخدعها بينما اختفى راوول فى غرفة مجاورة، وبعد أن تناولا طعامهما احتواها بين ذراعيه وجلسا أمام النافذة المفتوحة يوحدهما غرامها وذكرى قبلاتهما على الرغم من الخطيئة التى ارتكباها.

ومع ذلك فقد أخذت كلاريس تبكى.

وقال راوول فى رفق:

– افرحى أيتها الحبيبة، إن الحياة جميلة لمن هم فى سننا، وستكون أجمل حين نتغلب على المشاكل التى أمامنا، فلا تبكى.

مسحت دموعها وحاولت أن تبتسم وهى ناظرة إليه، كان نحيف

الجسم مثلها ولكنه كان عريض المنكبين، تبدو فى ملامحه أمارات النبل وسمات المهابة، يدل فمه على ذكاء متوقد فى حين كانت عيناه تشعان ببريق السخرية والاستخفاف، وقالت جازعة.

– راوول.. راوول، إنها حتى فى هذه اللحظة وأنت ناظر إلى لا تفكر فى.. هل يمكن هذا؟ إنك لا تفكر فى بعد ما حدث بيننا، فيم تفكر أيها الحبيب راوول؟

فقال ضاحكًا:

ـ إننى أفكر فى أبيك.

– تفكر فى أبى؟

– نعم، أفكر فى البارون ديتيج وفى مدعويه، كيف يضيعون أوقاتهم فى قتل طيور لا حول لها ولا قوة.

– إنها هواية عندهم.

– هل أنت واثقة مما تقولين؟.. أما أنا فلابد أعتقد ذلك.. لو أننا فى سنة 1894م لظننت أنهم...

– امض فى حديثك أيها الحبيب.

– حسنًا.. يخيل إلى أنهم يتآمرون.. أجل يا كلاريس.. إن المركيز

دى رولفيل، وماتيودى لافوبالين والكونت أوسكار دى بنيتو وروكس دشييه وغيرهم.. كل هؤلاء النبلاء سادة بلدة كو مشتركون فى مؤامرة ما...

عبست كلاريس وقالت: هذا سخف يا عزيزى.. دعنا من ذكر أبى ومدعويه وحدثنى عن حبك لى.

- إن حياتى مكرسة لك ولحبك أيتها الحبيبة.. لا شاغل لى ولا مطمع إلا نوالك يا كلاريس.. هبى أن أباك يتآمر، وأنه اعتقل وحكم عليه بالإعدام، فخلصته أنا من الموت وأنقذته من السجن، أفلا يرضى عندئذ أن يعطينى يدك.

- سوف يرضى فى يوم قريب أيها الحبيب.

- أوه.. أبدًا.. إننى فقير، ولا أمارس أى عمل.

- ولكن عندك اسمك.. راوول داندريزى.

- حتى هذا الاسم لا أملكه.

- وكيف هذا؟

- داندريزى اسم أمى، استعادته بعد أن أصبحت أرملة، وقد استعادته نزولا على رغبة أهلها الذين أسخطهم زواجها وأساءهم.

فسألته كلاريس قائلة: ولماذا؟

– لماذا؟.. لأنها تزوجت رجلاً فقيرًا من عامة الشعب.. يشتغل بتدريس الجمباز وألعاب السيف والملاكمة.

– وما اسمك إذن؟

– أرسين لوبين.

– أرسين لوبين؟

– نعم، وهو كما ترين اسم عادى.

ذهلت كلاريس، ماذا يهمها أن يكون اسم زوجها أرسين لوبين أو راوول داندريزى؟ إن شخصه هو الذى يهمها، ولكن البارون.

وتمتمت تقول:

– ما كان يجب أن تتبرأ من أبيك، أتخجل من أنه كان مدرسا؟

ضحك ضحكة ألمتها وقال:

– كلا، وأقسم أننى استفدت من دروسه التى لقنها لى فى الجمباز والملاكمة وأنا لا أزال طفلا، ولكن قد تكون هناك أسباب حملت أمى على الانفصال عنه، وهذه الأسباب لا تعنينى.

وقبلها فجأة ثم أخذ يرقص ويدور حول نفسه، وعاد إليها أخيرًا وقال:

– ولكن اضحكى أيتها الحبيبة.. كل هذا غريب.. اضحكى.. ماذا يهمك أن يكون اسمى أرسين لوبين أو راوول داندريزى، المهم هو أن أنجح، وسأنجح بإذن الله ما من عراف أو عرافة إلا وقد تنبأ لى بمستقبل باهر وبشهرة عالمية.. سيكون راوول داندريزى جنرالاً أو وزيرًا أو سفيرًا.. ذلك إذا لم يصبح أرسين لوبين، هذه مسألة للقدر وحده أن يفصل فيها، وعلى كل حال فإننى على استعداد لكى أكون هذا أو ذاك، فلى عضلات من الفولاذ وعقلى لا يباريه عقل، أتريدين أن أمشى على يدى؟

أو أن أحملك بين ذراعى؟

هل تحبين أن أسلبك ساعتك دون أن تشعرى؟.. أو أن ألقى عليك قصائد هومير اليونانية وملتون الإنجليزية، آه! ما أجمل الحياة! راوول داندريزي.. أو أرسين لوبين؟

أيهما سيكون المجد من نصيبه يا شمس حياتى؟

أمسك راوول عن الكلام فجأة وقد أثقل عليه استخفافه، ودار

ببصره فى الغرفة التى أقلق هدوءها كما أقلق راحة وضمير الفتاة الطاهر، ثم جثا أمام كلاريس بخفته المعهودة وقال:

– عفوك يا كلاريس، لقد أسأت إليك بحضورى.. ليس الذنب ذنبى، نعم يمكننى الاحتفاظ بتوازنى إلا بعد مجهود كبير، فكل من الخير والشر يجتذبنى.. يجب أن تساعدينى يا كلاريس فى اختيار الطريق الذى ينبغى أن أسلكه، ويكب أن تصفحى عنى إذا أخطأت.

أخذت رأسه بين يديها وقالت:

– ليس هناك ما تؤاخذ عليه يا راوول، إننى سعيدة، سأتألم كثيرًا وأنا موقنة من ذلك، ولكننى أرضى بالعذاب والآلام ما دامت صادرة منك.. خذ.. إليك صورتى، كن عاقلا ويجب ألا تخجل حين تنظر إليها، أما أنا فسأظل على عهدى لك يا راوول عشيقتك وزوجتك أمام الله.. إننى أحبك.

وطبعت قبلة على جبينه، فابتسم وضمها إلى صدره فى شغف وجنون.

***

كانت خطة راوول، ولنترك اسم أرسين لوبين جانبا الآن، فهو نفسه لم يكن يعرف مصيره حينذاك، وكان ينظر إلى هذا الاسم نظرة إلى شيء محتقر – كان خطة راوول بسيطة، فقد كان يوجد فى الحديقة برج مقام بجانب سور القصر، وكانت الأعشاب تغطى جدرانه، فلم يشك فى أن اجتماع الساعة الرابعة سيكون في القاعة الكبرى التى يستقبل فيها البارون عماله، وقد لاحظ راوول أن إحدى نوافذ البرج الخارجية تقع أمام نافذة هذه القاعة مباشرة.

تسلق راوول الأغصان بسهولة، ودخل البرج من النافذة، واختفى وراء الأعشاب والأغصان بطريقة تمكنه من رؤية كل ما يحدث فى القاعة من غير أن يراه أحد.

وبعد أربعين دقيقة جاء البارون ومعه ابن عمه أوسكار دى بنيتو، وكان للبارون جود فيرى ديتيج عضلات مصارع من مصارعى السيرك ووجه بلون القرميد، وله لحية شقراء قصيرة وعينان حادتان ثاقبتان كعينى الصقر.

أما زميله، وهو ابن عمه له فكان له منظر نبيل ريفى خشن المظهر بطىء الحركات، وكان كل منهما شديد الانفعال فى تلك اللحظة، وقال

البارون:

– أسرع، سينضم إلينا لافوباليير وورولفيل دوبيجار، وسيأتى بومنيان فى الساعة الرابعة، وبرفقته البرنس دراكولا والكونت دى برى، ثم تأتى هى.. ذلك إذا وقعت فى الفخ.

قال أوسكار دى بنيتو:

– هذا أمر مشكوك فيه.

– ولماذا؟ إنها طلبت عربة وستجدها فى انتظارها فى المحطة، فتركبها.

وسيقود دورمون العربة، ويأتى بها إلينا، وفى منتصف الطريق سيقفز روكس دشييه على سلم العربة ويفتحها ويخضع السيدة ويقيدها هو وورورمون وهذا أمر محسوم.

فونا بنيتون من جودفرى ديتيج وهمس يقول:

– وبعد ذلك؟

– سأطلع الأصدقاء على أمرها.

– وهل تظن أنك ستستخلص منهم أمرا بإعدامها؟

– سوف يتم هذا أم لا فسوف تكون النتيجة واحدة.. فإن بومنيان

يريد ذلك ولن يسعنا أن نرفض.

– آه.. إن هذا الرجل سيوردنا موارد الهلاك معه.

هز البارون كتفيه وقال:

– يلزمنا رجل مثله لكى يتغلب على هذه المرأة، هل أعددت كل شىء؟

– نعم، الزورقان موجودان تحت سلم الأبراشية.. والزورق الصغير مثقوب، وسيغوص فى البحر بعد عشر دقائق من وضعه فوق سطح الماء.

– وهل وضعت فيه حجرا؟

– نعم، حجرًا ثقيلاً.

ولزما الصمت، وكان راوول قد سمع كل كلمة من حديثهما فقال يحدث نفسه:

– ويلكما! إننى لا أتنازل عن مكانى هذا حتى ولا مقابل إمبراطورية يا لهما من شجاعين.. إنهما يتحدثان عن القتل كما لو أنهما يستعدان لقتل عصفور.

ووصل المدعون الثلاثة معا، وجلسوا فى ركن مظلم بحيث لم

يستطع أن يتبين ملامحهم.

وعند تمام الساعة الرابعة جاء رجلان أحدهما متقدم فى السن، تدل هيئته على أنه من رجال الجيش، أما الآخر فقد نهض الموجودون عندما رأوه وسارعوا إلى استقباله، فأدرك راوول على الفور أنه كاتب الرسالة التى قرأها وأنه هو المدعو بومنيان.

أشار بومنيان إليهم أن يجلسوا، ثم قدم إليهم زميله قائلا:

– البرنس دراكولا.. وهو من أتباعنا كما تعرفون، وإن كان لم يحضر اجتماعاتنا الأولى، إن شهادته اليوم ضرورية، لأنه التقى مرتين فى سنة 1870م بتلك (السفاكة الجهنمية) التى تهدد مصيرنا.

قام راوول بعملية حسابية فشعر بشىء من الخيبة لأن (السفاكة الجهنمية) لم يكن عمرها يقل عن الخمسين سنة، إذا كان بومنيان قد قال حقا.

جلس البرنس دراكولا بينما انفرد بومنيان بابارون جود فرى وأخذ منه لفافة صغيرة ولم يشك راوول فى أنها الرسالة المذكورة.

ثم تبادل حديثا بصوت خاف، قطعه بومنيان بصوت لم يسمعه الآخرون:

– كفى مجادلة يا سيدى، إن الحكم صارم، ستموت السفاكة غرقا، فهذه أضمن وسيلة.

ثم سار إلى مقعد خلفى، وقال قبل أن يجلس:

– إنكم تعرفون مدى أهمية هذه الساعة بالنسبة لنا أيها الأصدقاء.

لقد تم بيننا الاتفاق على القيام بمهمة لابد لنا من القيام بها فعليها وحدها يتوقف نجاح مشروعنا، وبها تتعلق أرواحنا، لقد عرفت امرأة ذلك المشروع الذى نسعى وراءه، وهى الأخرى تبحث عما نبحث عنه، فهى إذا نجحت قبلنا ففى ذلك ضياع مجهوداتنا.. هى أو نحن.. ليس فى هذه الدنيا مكان لاثنين، وتمنوا معى بكل حرارة أن تنتهى هذه المعركة فى صالحنا.

وجلس وانقضت الدقائق ببطء، وساد صمت عميق، لم يحاول أحد أن يقطعه، وسمعوا أخيرًا صوت عربة آتية فصاح البارون قائلا:

– مرحى! لقد جاءوا بها.

ووقفت العربة، وهبط دورمون من مكان القيادة ووثب روكس دشيية منها إلى الخارج، وأخرج الاثنان بمساعدة البارون امرأة مشدودة الوثاق، يغطى رأسها غطاء رقيق وحملوها إلى القاعة، وقال

البارون مخاطبًا دورمون:

– ارفع الغطاء.

وفك قيودها هو نفسه، ورفع دورمون الغطاء فتمتم المدعوون وتهامسوا همسات تنم على الدهشة، واستولت الدهشة على راوول هو الآخر، فقد رأى أمامه امرأة فى شرخ الشباب وروعة الجمال.

وصاح البرنس دراكولا صيحة أسكتت الآخرين، وتقدم نحو المرأة عابس الوجه وعيناه تقدحان شررًا وقال:

– إنها هى.. إننى أعرفها.. رحماك يا الله!.

فسأله البارون قائلا:

– ما الخبر؟

نطق دراكولا عندئذ بهذه الكلمات التى استدعت دهشة الآخرين:

– إنها لا تزال فى شرخ الشباب، كما كانت منذ أربع وعشرين سنة.

وكانت المرأة قد جلست شامخة الرأس، وقد شبكت يديها فوق ركبتها، وكانت قبعتها قد وقعت أثناء النزاع الذى وقع بينها وبين دورمون فى العربة.

وكان شعرها مرسلا إلى الوراء بشكل مغر.. جذاب.. وتمتم راوول

وهو ينعم النظر إليها:

– يبدو لى أن هذه السفاكة الجهنمية من أروع مخلوقات الله!.. أيتواطأ عشرة رجال ضدها!.

نظرت المرأة إلى المدعوين مليا، وحاولت أن تميز ملامح الجالسين فى الركن، وأخيرًا قالت:

– ماذا تريدون منى؟ إننى لا أعرف أحدًا منكم، فلماذا جئتم بى إلى هنا؟

قال جودفرى ديتيج:

– لأنك عدوتنا.

عدوتكم؟ لا ريب أن هناك خطأ. إننى مدام بللجرينى مدام بللجرينى.

– أؤكد لكم..

قال جودفرى قائلا بصوت حاسم:

– كلا.

ثم أردف، ونطق بهذه الكلمات الغريبة:

– بللجرينى اسم كان ينتحله الرجل الذى تدعين بنوته فى القرن الثامن عشر.

لم تنطق المرأة، ولزمت الصمت هنيهة، كأنها تستخف كلماته، ثم سألته:

– فماذا اسمى إذن؟

– اسمك جوزفين بلسامو، كونت سدى كاليو سترو.

***

# 2 جوزفين بلسامو

كاليو سترو . . الساحرالعظيم الذى حير أوروبا وأدهش البلاط الفرنسى فى عهد لويس السادس عشر . . عهد الدسائس والقلاقل . .

عهد عقد الملكة المشهور.. وعهد مارى أنطوانيت والكردينال دى روهان.

لئن كان راوول لم يصدق شيئًا مما سمع، ولئن كان قد ضحك للتطور الغريب الذى اتخذته المسألة، فقد خيل إليه أن الموجودين قد أخذوا قول البارون على أنه حقيقة لا تقبل الجدل، وقد دهش لذلك وأخذ يسائل نفسه هل لديهم من البراهين والأدلة ما يجعلهم يعتقدون فى صحة ما أخبرهم به البارون، وهل وجدوا فى تلك التى تدعى أنها ابنة كاليو سترو المواهب التى عزاها أهل الجيل السالف إلى الساحر العظيم؟!

وانثنى جود فرى ديتيج إلى المرأة وقال لها:

– اسمك كاليو سترو أليس كذلك؟

– لا شيء يرغمنى على إجابتك، كما أنه ليس لك أى حق فى أن تسألنى، ولكننى لا أخفى عليك أن شهادة ميلادى تحمل اسم جوزفين بللجرينى، وأننى لغرض فى نفسى أطلق على نفسى اسم جوزفين بلسامو، كونت سدى كاليوسترو.

– أنت إذن لست ابنة كاليو سترو، على الرغم من بعض اعترافاتك.

هزت كتفيها ولزمت الصمت، فتحول البارون ديتيج إلى أصدقائه، وقال:

– لا أريد أن أحمل صمتها هذا على أنه اعتراف أو نفى، فليست لكلمات هذه المرأة أية أهمية، وإذا دحضناها ففى ذلك مضيعة للوقت، إننا اجتمعنا هنا لننتهى من عملا يجهله معظمنا، ولذلك، فمن الضرورى أن أذكر لكم الحقائق بحسب ترتيبها، وهى حقائق وجيزة سأطلعكم عليها فأرجو أن تعيرونى آذانا صاغية.

وأخرج من جيبه ورقة وراح يقرأ:

(فى أوائل مارس من سنة 1870م أى قبل الحرب بين فرنسا

بروسيا بأربعة شهور، كانت الكونتس دى كاليو سترو فى طليعة الذين لفتوا إليهم الأنظار، فقد كانت جميلة أنيقة، وكانت تبعثر المال يمنة ويسرة، دون حساب، وكان يرافقها شاب قالت عنه أنه أخوها وقد جذبت إليها اهتمام الناس باسمها الغريب، وبالغموض الذى يحيط بها والمعجزات التى أتت على يدها، وكانت تفتخر بأنها ابنة الكونت سترو، كما أنها راحت تؤكد أنها تعرف سر الشباب الدائم وكانت تبتسم وتسرد على مسامع الناس أشياء غريبة تزعم أنها وقعت لها فى عهد نابليون الأول.

وقد بلغت قوة سحرها وتأثيرها إلى درجة أن أبواب نابليون الثالث فتحت أمامها، وراحت الإمبراطورة أوجينى تستدعيها فى بعض الحفلات الخاصة وتسألها عن كل ما يتعلق بالمستقبل، وقد وصفت جريدة شار يفارى إحدى هذه الحفلات فى عدد من أعدادها صودر فى الحال وهو فى أيدى الباعة، وسأذكر لكم ملخص ما جاء فيه.

(كانت ابتسامتها غامضة لا يستطيع المرء أن يستطلع ما وراءها..

فيها دلال وسذاجة وقسوة وضلال وتزعم أنها فى الثمانين من عمرها وفى تلك اللحظات كانت تخرج مرآة صغيرة ذهبية تسكب

على سطحها قطرتين من قنينة صغيرة جدًّا ثم تمسحها وتنظر فيها فإذا بوجهها يعود إلى نضارته وحيويته.

(وعندما سألناها قالت:

هذه المرأة كانت ملكا لكاليوسترو، وإن الذين ينظرون فيها بكل ثقة واطمئنان لا يتقدم بهم العجز ولا يشيخون، انظر إلى هذا التاريخ المكتوب فى إطارها سنة 1782م، وبجانب التاريخ رباعية مكتوبة وتتضمن لغزًا كبيرًا ذكرته الملكة مارى أنطوانيت لجوزيف بلسامو.

وقد كان فى بلسامو أن يحله، وكان يقول إن الذى يستطيع ذلك يصير ملك الملوك.

فسألها سائل:

هل يمكننا أن نعرف هذه الرباعية؟

– ولما لا؟ إن معرفتها لا توصلكم إلى حلها، وكاليو سترو نفسه اختطفه الموت قبل أن يسعفه الوقت لذلك، وها هى:

إذا أردت الكنز فهو مخبوء تحت بلاطة ملوك بوهيميا

ثروة ملوك فرنسا

الشمعدان ذو السبعة فروع

ولكن كل هذا لا يعد شيئًا إزاء ما حدث فيما بعد، فقد أرادت الملكة أن تسألها عن المستقبل، وإن كانت قد سألتها من طرف خفى فقالت لها الكونتس دى كاليو سترو:

– لتتكرم جلالة الملكة فتنفخ فى هذه المرآة.

ففعلت الملكة، وعندئذ نظرت الكونتس إلى المرآة وقالت:

– إننى أرى أشياء جميلة.؟. ستقع حرب كبيرة.. وسيكون الفوز حليف فرنسا.. وستعود الجيوش ظافرة، وسيهللون للإمبراطور ولولى العهد الإمبراطورى.

واستطرد البارون ديتيج يقول:

– هذا ملخص ما نشرته جريدة شاريفارى، وهو أمر يدعو إلى الدهشة حقًّا، فقد تتنبأ الكونتس بوقوع الحرب قبل نشوبها بأسابيع طوال، فمن هى هذه المرأة؟..

من هى هذه الأفاقة التى تنبأت وصحت نبوءتها، والتى طوردت بعد ذلك؟

لقد أجرت جريدة شاريفارى تحقيقًا سأذكره لكم:

سئلت الكونتس: نحن نسلم بأنك ابنة كاليو سترو.. ولكن من

هى أمك؟

فأجابت قائلة: أمى؟ ابحثوا بين صديقات كاليو سترو.. بين صديقاته ذوات المكانة والشأن.. أجل إنها هى.. جوزفين دى بوهارنيه التى تزوجت نابليون فيما بعد والتى صادرت إمبراطورة فرنسا.

(وإزاء هذا الأمر لم يستطع بوليس نابليون الثالث أن يقف مكتوف الأيدى فقام بتحقيق دقيق وفى نهاية يوليو قدم أحد مفتشى البوليس تقريرًا جاء فيه:

(إن شهادة الميلاد تحمل اسم جوزفين بللجرينى بلسامو، كونتس كاليو سترو، وهى تثبت أنها ولدت فى باليرم فى اليوم التاسع والعشرين من يوليه سنة 1788م، وقد ذهبت إلى باليرم، وفحصت سجل المواليد ووجدت فيه بتاريخ 29 يوليه سنة 1788م اسم جوزفين بلساموا ابنه جوزيف بلسامو وجوزفين دى لاب.

(وقد قمت بتحقيق ثبت لى منه أن جوزفين دى بوهارنية، بعد طلاقها من زوجها الكونت دى بوهارنية استردت اسم عائلتها جوزفين تاشيم دي لاباجيرى، وبحثت من هذه الناحية فعلمت أن حكمدارية باريس كانت على وشك اعتقال كاليو سترو، وكان يقيم فى

فندق صغير فى فونتنيبلو على الرغم من أنه كان قد نفى من فرنسا بعد سرقة عقد الملكة، وتحريت عن حياة كاليوسترو الخاصة فعلمت أنه كان يستقبل كل يوم سيدة طويلة القامة، نحيفة الجسم، والمعروف أن جوزفين دى بوهارنيه كانت تقطن فى كاليوسترو هرب فى مساء اليوم المحدد لاعتقاله.

وفى صباح اليوم التالى سافرت جوزفين دى بوهارنية فجأة، وبعد شهر واحد تمت ولادة الطفلة فى باليرم.

(وليس هناك شك بعد هذا فى أن جوزفين دى بوهارنية، التى صارت إمبراطورة فيما بعد هى أم تلك الطفلة، ومما يؤيد ذلك أنه بعد انقضاء ثمانية عشر عامًا على ولادة الطفلة تبنتها الإمبراطورة وراحت تعاملها معاملة الأم لابنتها، كما أن نابليون كان يداعبها كما يداعب الإنسان طفله، وكان يدعوها بجوزين على سبيل التدليل.

(وسقط الإمبراطور، وانهالت الإمبراطورة فتبنى القيصر إسكندر جوزين ورحلها إلى روسيا باسم الكونتس دى كاليوسترو.

واستطرد البارون يقول:

(وكان هذا التقرير سببًا فى أفول نجمها وابتعادها عن قصر

التويلرى، فصدر أمر بنفيها هى وأخاها، فسافر أخوها إلى ألمانيا، وانتقلت هى إلى إيطاليا ونزلت فى مودانا حيث التقى بها ضابط شاب يدعى البرنس دراكولا، وقد حياها هذا الضابط، وهذا الضابط هو الذى أظهر لكم حقيقة شخصيتها اليوم.

وهنا نهض البرنس دراكولا وقال:

– إننى لا أعتقد فى المعجزات، ومع ذلك فإن ما أقوله الآن معجزة، إننى أقسم بشرفى العسكرى أن هذه المرأة هى نفسها المرأة التى حييتها فى موادنا منذ 22 سنة.

فسألته جوزفين متهكمة:

– حييتها فقط؟

– ماذا تعنين؟

– أعنى أن ضابطًا فرنسيًّا لا يكتفى بتحية امرأة جميلة.. وإنك نطقت بكلمات أخرى.

– هذا جائز، ولكننى لا أذكرها.

– أما أنا فأذكرها، إنك دنوت من المرأة المنقبة وطبعت على يدها قبلة طويلة، وقلت لها:

(أرجو يا سيدتى أن يسعدنى الحظ فألتقى بك مرة أخرى).

ارتبك البرنس دراكولا أمام هذه الذاكرة القوية وقال:

- يا الله!

ولكنه لم يلبث أن تمالك نفسه وقال:

- إننى نسيت ذلك يا سيدتى، وإن كانت تلك المقابلة الأولى قد تركت انطباعًا حسنًا فى نفسى فإن المقابلة الثانية قد محت هذا الانطباع.

- ومتى كانت هذه المقابلة الثانية يا سيدى؟

- كانت فى فرساى، بعد سنة كاملة من المقابلة الأولى، كنت أرافق المؤتمر الفرنسى الذى عقد نصوص الهدنة فرأيتك جالسة فى مقهى تشربين وتتسامرين مع بعض الضباط الألمان كان من بينهم جاسوس لبسمارك، وقد عرفت حينئذ الدور الذى كنت تقومين به فى قصر التويلرى، وعرفت لحساب من تشتغلين.

زادت دهشة راوول داندیزى عن ذى قبل، خيل إليه أنه يسمع قصة خيالية صورت من دماغ عبقرى، وعجب كيف يعتقد هؤلاء الرجال فى صدور مثل هذه القصة، وكيف يصدقون ما يعزونه إلى هذه المرأة، هل أصابهم العمى فلا يرون أنها فى عنفوان الشباب؟

وختم البارون حديثه قائلا:

- هذا هو ماضى هذه المرأة، وهناك أشياء أخرى كثيرة فإننى أريد أن أعرف إذا كنتم تعدون لهذه التهم أهمية ما.. إذا كان الأمر كذلك فأحرى بكم أن تشنقونى أو تعدمونى حرقًا.

- كلا، إنما ذكرت كل هذه الأحداث لأعطى للموجودين صورة حقيقية عنك.

- وهل تظن أنك أفلحت فى ذلك؟

- أجل.. من الناحية التى تهمنا.

- إنك تقنع بالقليل، وما هى الروابط التى تراها بين هذه الأحداث المختلفة؟

- أرى ثلاثة روابـط.. أولها شهادة الذين عرفوك والذين بواسطتهم استطعنا استعادة مراحل حياتك مرحلة، وثانيا اعترافك..

- اعترافى؟

- أما أعدت للبرنس دراكولا نفس الحديث الذى تم بينك وبينه فى محطة مورانا؟

- هذا صحيح.. وبعد ذلك؟

- وثالثاً هذه الصور الثلاث لك أليس كذلك؟

قال ذلك وعرض عليها ثلاث صور، فنظرت إليها وقالت:

- هذه الصور الثلاث التقطت لى فعلا.

قال جودفرى ديتيج:

- التقطت الصورة الأولى فى موسكو فى سنة 1816م لجوزفين، كونت سدى بلسامو، والتقطت الصورة الثانية لها فى سنة 1870م والأخيرة أخذت لها فى باريس فى عهدنا هذا، والصور الثلاث عليها توقيعك، وهو توقيع واحد بنفس الخط، وهذا يثبت...

فقاطعته قائلة فى سخرية:

- هذا يثبت أن نفس المرأة احتفظت بشبابها وبجمال وجهها ونضارته من سنة 1816م إلى سنة 1892م.. إذن.. إلى النار.

وضربت الأرض بقدمها الرقيقة وقالت:

- ولكن لنفرغ من هذه المسألة.. بماذا تتهموننى؟.. ولماذا أتيتم بى هنا؟

- أتينا بك هنا لنواجهك بالجرائم التى ارتكبتها.

- أية جرائم؟

- كنا اثنى عشر صديقا، نسعى وراء غاية واحدة، ولكننا الآن تسعة فقط، وقد مات الثلاثة الآخرون.. ماتوا قتلا بيدك.

واستطرد البارون ديتيج يقول:

- منذ ثمانية عشر شهرًا كان دينيس سان هوبير، أصغر أصدقائنا يقوم بالصيد فى الهافر، وقد خرج بعد ظهر أحد الأيام وبندقيته فوق كتفه، وصعد فوق التل لكى يرى منظر غروب الشمس وراء البحر، ووجدت جثته، فى الصباح، مهشمة فوق صخور الشاطئ، وقد استبعد المحققون فكرة الانتحار، ولم يخطر لهم أن فى الأمر جريمة واعتبروا الأمر قضاء وقدرا.

(وفى شهر يوليه خرج جورج دى ايستونال للصيد فى صباح مبكر فى ضواحى دييب وبعد ساعتين عثروا على جثته مهشمة فوق صخور الشاطئ هو الآخر ومات وخلف وراءه زوجة وطفلين، واعتبر الأمر قضاء وقدرا أيضًا!.

ولكننا لم نعتقد ذلك، فلا يمكن أن يصيبنا القدر بضربة متشابهة مرتين، لقد اتفق اثنى عشر صديقا على إنجاز عمل كبير الأهمية، فلم يكد يتم بينهم الاتفاق حتى مات منهم اثنان، أفلا يدل على أن هناك

يدًا أثيمة تعبث وتستهتر؟

(ارتـاب البرنس دراكـولا فى الظروف التى أحاطت بموتها، وأطلعنا على شكوكه، كان يعرف أننا لسنا الوحيدين الذين نهتم بذلك العمل العظيم الذى اتفقنا على القيام به، وكان يعرف أن حفلة سرية أقيمت فى قصر الإمبراطورة أوجينى ذكرت فيها للكونتس كاليو سترو نفس اللغز الذى نسعى إلى حله..

لغز الشمعدان ذى السبعة فروع.

(وقمنا بالتحقيق فى هذه الناحية، فعلمنا أن سيدة تدعى بللجرينى كانت تقيم وحدها فى فندق فى أحد شوارع باريس المنعزلة، وأنها كانت تغيب عن ذلك الفندق شهورًا طوالا.. وعلمنا كذلك أن أصحاب الفندق يعرفونها باسم الكونتس دى كاليو سترو.

واستحضرنا صورة لها وأرسلناها إلى البرنس دراكولا.. وكان وقتئذ فى إسبانيا، فعرف فيها المرأة التى سبق له أن رآها منذ 22 سنة.

(وثبت لنا أن هذه المرأة كانت موجودة فى دييب فى اليوم الذى لقى فيه جورج دى ايستوفال حتفه.

(وقد ذكرت لى أرملة جورج دى ايستوفال أن زوجها تعرف فى

أواخر أيامه بامرأة وأن هذه المرأة قد عذبته كثيرًا، وترك سان هوبير ورقة يعترف فيها أنه كان من الغباء بحيث كتب فى مذكرته بضع كلمات تتعلق بلغز الشمعدان ذى السبعة فروع، وبالاتفاق الذى تم بين الأصدقاء الاثنى عشر، وأن هذه المذكرة سرقتها منه امرأة.

(أدركنا حينئذ كل شىء.. أدركنا أن المرأة أوقعت سان هوبير وجورج دى ايستوفال فى حبائلها لكى تعرف منهما ما تريد، وأنها بعد أن استخلصت منهما ما تريد خشيت أن يطلعا أصدقاءهما على أمرها فقتلتهما هذه المرأة هى التى ترونها أمامكم.

سكت جودفرى ديتيج، وساد صمت رهيب عميق، أخذ راوول يتأمل أثناءه جمال المرأة وقد شعر بالقلق بعد أن سمع التهم التى وجهت إليها، وأيقن أن هناك خطرًا ما حقًّا يتهددها.

وسألها البارون فجأة:

- هل ينبغى أن أذكر لك الجريمة الثالثة؟

- كما تشاء، فكل ما تقوله هراء، إنك تذكر أسماء أشخاص لم أسمع بهم من قبل، فلا يهمنى أن تزيد جريمة أو تنقص.

ألم تعرفى سان هوبير وجورج دى ايستوفال؟

هزت كتفيها ولم تجب، فانحنى جودفرى ديتيج قليلا وقال بصوت خافت:

- وبومانيان؟
- فرفعت عينيها إليه وسألته:
- بومانيان؟
- نعم، ثالث أصدقائنا اللذين قتلتهم، لم يمض على موته وقت طويل.. لقد مات بالسم.. أما عرفته؟

***

# 3 – محكمة التفتيش

ما معنى هذا الاتهام ؟ نظر راوول إلى بومانيان، وكان هذا الأخير قد نهض وأخذ يسير وهو مطأطئ الرأس إلى أن وصل خلف جوزفين بلسامو، فجلس ولم تنتبه المرأة إليه.

أدرك راوول غرض بومانيان عندئذ وعرف الشرك الذى يدبره للمرأة.. إذا كانت قد قتلت بومانيان، وإذا كانت تؤمن بموته حقا فإنها ستفزع أيما فزع حين تراه واقفا أمامها بلحمه ودمه، أما إذا لم تضطرب، وإذا بقيت مالكة لجأشها فسيكون هذا أكبر دليل فى صالحها، وقال البارون:

– ألا تذكرين هذه الجريمة هى الأخرى؟.. ألم تعرفى بومانيان؟ تكلمى. ألم تعرفيه.

لم تنطق جوزفين، وفطنت فجأة إلى أن وراء إصرار البارون وإلحاحه فى طلب الرد شيئًا فتوخت الحذر، وارتسمت على ملامحها أمارات قلق خفيف، واستشعرت الخطر المحدق بها فنظرت حولها كحيوان طريد.

نقلت بصرها من جودفرى ديتيج إلى لا فوباليير، ثم تحولت إلى حيث جلس بومانيان وما كادت عيناها تقعان عليه حتى ارتدت إلى الوراء مذعورة، كما يفعل المرء حين يرى شبحًا يظهر أمامه فجأة، وأسدلت أهدابها، مدت يديها إلى الأمام كأنها تحاول أن تبعد الرؤية المخيفة وتمتمت تقول بومانيان..بومانيان!.

وتمايلت تمايل الشجرة فى مهب الرياح، فحسب بومانيان أنه أفلح وغمره فرح شديد، بيد أن جوزفين لم تلبث أن اعتدلت واستردت ابتسامتها الغامضة وقالت فى هدوء:

- إنك أخفتنى يا بومانيان، فلقد قرأت فى الجرائد نبأ موتك.. ولكن لماذا أراد أصدقاؤك أن يخدعونى؟

ابتهج راوول حين رأى جوزفين تسيطر على الموقف من جديد، ورأى فيها عدوًّا لا يستهان به، أما بومانيان فقد ثارت ثائرته، فصاح يقول وقد ذهب الجنون بعقله:

- هذا كذب.. هذه فرية.. أنت كذابة.. إن ابتسامتك هذه لا تنطوى إلا على الخسة والخيانة والخداع والجبن.

كان صوته يتهدج من فرط الغضب، فقالت جوزفين بهدوء ورفق:

- هدئ من روعك يا بومانيان.

ولكن غضبه زاد، وحاول أن يتمالك نفسه ولكن الكلمات اندفعت من بين شفتيه اندفاعًا، فقال موجهًا الخطاب إلى أصدقائه:

- أردت أن أنتقم لصديقى سان هوبير وجورج دى ايستوفال فعملت على الاتصال بها.. ومضيت إلى أحد الأماكن التى تقام فيها الجلسات الروحانية حيث كنت واثقًا من أنى سأجدها.

(وقد وجدتها هناك فى الواقع، وأعترف أننى ما رأيتها حتى ترددت.. كيف يمكن أن تكون هذه المخلوقة الوديعة قاتلة سفاكة.

(وتبعا لتعليماتى جلس الصديق الذى اصطحبته معى بجوارها، وتبادل الحديث مع من بجانبها، ثم نادانى باسمى، وما كاد يفعل حتى رأيت الاهتمام ينطبع على وجهها فتأكدت أنها تعرف اسمى، وأنها قرأته فى المذكرة التى سرقتها من دنيس سان هوبير، وانتبهت من تأملاتها وأفكارها فجأة، وما هى إلا دقيقة حتى وجهت إلى الحديث

معى ساعتين كاملتين استخدمت فيها كل وسائل الفتنة والإغراء، وغادرتها على باب بيتها بعد أن وعدتها بالعودة إليها فى اليوم التالى.

(شعرت فى نفس اللحظة التى غادرتها فيها بأننى وقعت فى غرامها.

كان يجدر بى أن أهرب منها عندئذ غير أن السيف كان قد سبق العزل، فضاع عقلى وجننت شغفًا بها، ولم ألبث أن نسيت دماء سان هوبير وجورج دى ايستوفال، ونعمت بغرام فاسد محرم.. كانت ابتسامتها تربطنى بها فلا أستطيع منها فكاكا.. ولم أنس جرائمها فحسب بل ارتكبت ما هو أفظع، فنطقت رغما عنى ببضع كلمات تتعلق بالشمعدان ذى السبعة فروع، وعرفت هذه المرأة منى كل ما نعرفه.

(لماذا فشلت؟ لست أدرى، لقد كانت تشير فى سياق حديثها إلى لغز الشمعدان ذى السبعة فروع الذى أخبرت الملكة مارى أنطوانيت كاليو سترو به، واستولى على الجبن فجأة فأخبرتها باتفاقنا وأنا أخدع نفسى وأقول إنها ستكون حليفتنا، ولكننى كنت واهمًا ومجنونًا.

ولم يلبث رشدى أن عاد إلى، ففى ذات يوم، منذ ثلاثة أسابيع عزمت على السفر إلى إسبانيا لقضاء بعض الأعمال، وأخبرتها بنيتى فى

صباح اليوم وودعتها، وخرجت فى الساعة الثالثة بعد الظهر لإنجاز عمل غرب باريس.. وتذكرت أننى لم أصدر بعض التعليمات لخادمى فعدت ودخلت من باب الخدم، وكان خادمى قد خرج وترك باب المطبخ مفتوحًا، ولكننى سمعت صوتًا فى الداخل، فاقتربت ببطء ورأيت هذه المرأة، وكانت المرآة تعكس لى صورتها.

(كانت تفتش فى حقيبتى)، فأخذت أراقبها.

(وفتحت صندوقًا صغيرًا فيه أقراص أتناولها ضد الأرق، ورفعت أحد هذه الأقراص، واستبدلته بقرص آخر أخرجته من حقيبة يدها.

(فوجئت بهذا المنظر، فلم أفكر فى الهجوم عليها، وأخذها متلبسة بجريمتها، ولما انتبهت إلى نفسى وجدتها قد اختفت، فأخذت الأقراص إلى صيدلية قريبة وحللتها فوجدت واحدًا منها يحتوى على كمية كبيرة من السم تكفى لهلاكى.

كان هذا أكبر دليل على ما اقترفته من جرائم، وقد أرادت أن تتخلص منى كما تخلصت من سان هوبير وجورج دى ايستوفال، وكما ستتخلص من أصدقائى الباقين لتنفرد هى وحدها بالكنز الذى نسعى وراءه.

وأرسلت خطابًا إلى صديق لى يقيم فى إسبانيا، وبعد أيام نشرت بعض الجرائد نبأ موت رجل يدعى بومانيان فى مدريد.

ومن ذلك الوقت وأنا أعيش فى الظلام، وأتتبع حركاتها وأعمالها، فذهبت أولا إلى روان ثم إلى الهافر ثم إلى دييب، أى فى نفس الأماكن التى كنا نوالى فيها أبحاثنا، وكنت قد اعترفت لها بأننا سنذهب إلى دير فى مدينة الهافر ونبحث فيه فسبقتنا إليه وقامت بتفتيش دقيق، وفقدت أثرها بعد ذلك فى روان، وقد ذكر لكم صديقى ديتيج ما بقى من قصتها، فقد نصبنا لها شرك، فنشرنا فى الجرائد أن فلاحًا عثر فى أراضيه على شمعدان نحاس له سبع فروع، فجاءت بنفسها ووقعت فى الشرك.

هذه هى المرأة التى ترونها أمامكم، وأنتم تدركون الأسباب التى تحول دون تسليمها إلى رجال القضاء، فإن الفضيحة ستنالنا قبل أن تنالها هى، وسيتعذر علينا بعد ذلك أن نقوم بالعمل الذى نسعى وراءه، وعليه فإن واجبنا يدعونا إلى أن نحاكمها ونجازيها بما تستحق.

نهضت الكونتس دى كاليو سترو ونظرت إلى خصمها بدون اكتراث وقالت:

- بأى حق تحاكموننى، إن هذا من شأن القضاة وحدهم، تقولون إنكم تخشون الفضيحة، وفيم يهمنى هذا؟..

أطلقوا سراحى.

- سراحك.. نطلق سراحك لكى تستمرين فى قتلنا.. إنك فى قبضتنا ولن نتركك إلا بعد أن تنالى جزاءك.

- جزاء؟ أى جزاء؟ ل

و أن بينكم رجلا يعرف معنى الحق، والمحاكمة لضحك من اتهاماتكم السخيفة وبراهينكم العوجاء.

فقال بومانيان:

ـ إننا لا نريد كلامًا أجوف.. بل نريد أدلة تثبت لى أننى أخطأت فى أمرك.. تثبت لى إنك لست مجرمة.

- إن جريمتى الوحيدة هى إننى أسعى وراء نفس الغاية التى تسعون أنتم إليها.

- وسان هوبير، وجورج دى ايستوفال؟

- ألم تقتليهما؟

- سان هوبير.. دى ايستوفال؟

إننى لا أعرفها، وقد سمعت عنها اليوم لأول مرة.

- وأنا؟.. أنا؟.. أما عرفتنى.. ألم تحاولى قتلى بالسم؟

- كلا.

فصاح يقول وقد خرج عن طوره:

- ولكنى رأيتك يا جوزفين بلسامو.. رأيتك كما أراك الآن.. رأيتك وأنت تضعين السم وقد استحالت ابتسامتك إلى تكشيرة قاسية وحشية مثل الشيطان.

فهزت رأسها وقالت:

- لم أكن أنا التى رأيتها.. لقد ذهب الحقد بعقلك يا بومانيان، وأن روحك المتعصبة تثور ضد خطيئة الحب، أليس كذلك؟

هل تسمح لى أن أدافع عن نفسى؟

- هذا من حقك.

- انظر إلى الصورة التى التقطت للكونتس دى كاليوسترو فى موسكو فى سنة 1816م، انظر إليها جيدًا، إنها صورتى، أليس كذلك؟

- نعم.

- إذا كانت صورتى كما تقول فإن معنى قولك هذا إننى كنت

أعيش فى ذلك الوقت، أى منذ 80 سنة، كان عندى حين ذاك 25 سنة أو ربما 30.

فكر جيدًا، ها أنت تتردد الآن.. ها أنت قد أخذتك الحيرة فلا تستطيع أن تتأكد، والآن افتح إطار هذه المرآة ستجد فى داخله صورة أخرى لا مرأة تضع على رأسها خمارًا خفيفًا انسدل حتى أهدابها.. هل هى صورتى هى الأخرى؟

ووضعت على رأسها خمارًا خفيفًا انسدل حتى أهدابها بينما كان بومانيان ينظر إلى الصورة ونقل بصره من الصورة إليها ثم صاح:

- إنها صورتك، إنها صورتك، ليس هناك أى شىء فى ذلك.

- - اقرأ التاريخ المنقوش فى الناحية الأخرى إذن؟

فقرأ بومانيان: صنعت فى ميلانو فى سنة 1498م.

كررت قوله قائلة: فى سنة 1498م، أى منذ أربعمائة سنة.

وضحكت ضحكة رنانة واستطردت تقول:

- لا تنظر إلى هكذا، لقد كنت أعلم بوجود هذه الصورة، وقد كنت أبحث عنها، ثق أنه ليس فى الأمر معجزة، لن أقول لك إننى وقفت أمام المصور وأن عمرى أربعمائة سنة، فهذه صورة العذراء

مريم، رسمتها ريشة المصور برنارد ينولوينى، تلميذ ليوناردى فنش.

وسكتت سكتة قصيرة ثم قالت بلهجة الجد:

– هى فهمت الآن معنى ما أقول يا بومانيان؟ هناك شبه غريب بين العذراء مريم وبين فتاة موسكو.. شبه غريب:

فلماذا لا تفرض أن هناك امرأة أخرى تشبهنى، وأن تلك المرأة هى التى رأيتها فى بيتك، والتى قتلت سان هوبير ودى ايستوفال؟

– ولكنك ترى أيضا الصورة التى رسمت منذ أربعمائة سنة والأخرى التى التقطت منذ ثمانين سنة، والثالثة التى التقطت منذ خمس وعشرين سنة.. أهذه الصورة تمثلنى؟

وقدمت إليه وجهها الفاتن الجميل، وأسنانها الناصعة البياض وخديها المتوردين المزدهرين فانتابه الخور والضعف وتمتم يقول:

– أيتها الساحرة! إننى أكاد أصدق ذلك فى بعض الأحيان، ولكن من يدرى؟ ربما تكونين كاذبة.. إن المرأة التى فى الصورة لها بقعة سوداء فى أسفل كتفها.. وقد رأيت هذه البقعة على كتفيك.. أريهم إياها ليعرفوا حقيقتك.

كان العرق يتصبب من جبينه، ومد يده إلى كتفها، ولكنها دفعته

بعيدًا عنها وقالت:

– كفى يا بومانيان، إنك لا تعرف ما تفعل ولا تقول، إننى أصغيت إليك فى صمت واستنكار، فأنت قد تكلمت عنى كما لو كنت عشيقة لك وأنا لم أكن؟

أنت تكذب.. لماذا لا تقول لهم إنك فشلت؟ لماذا لا تقول لهم إنك تعقبتنى شهورًا وشهورًا تتوسل إلى وتهددنى دون أن تفلح حتى فى لمس ظهر يدى بشفتيك؟ لماذا لا تقول لهم إن هذا هو سبب حقدك على ومعاملتك لى بهذه الصورة؟

(لماذا لا تقول لهم إنك عندما رأيتنى أصدك أردت أن تنتقم منى، فنصبت لى هذا الشرك، وقدمت لأصدقائك منى صورة خاطئة محاولا أن تقنعهم إننى جاسوسة سفاكة وساحرة؟

لزم بومانيان الصمت، فقد انتهى النضال بفشله، ولم يفكر فى إلقاء أية تهمة أخرى عليها، وكان أصدقاؤه قد تغيرت ملامحهم وفارقتهم تلك القسوة التى كانت قد انطبعت على وجوههم أثناء الاتهام الذى ألقاه بومانيان فدخل الشك فى قلوبهم ولحظ راوول ذلك فداخله هو الآخر الأمل فى نجاة جوزفين.

إلا أن بومانيان تبادل حديثًا خافتًا مع البارون، ثم التفت إلى أصدقائه وقال:

– لقد سمعتم أقوال الاتهام والدفاع، ورأيتم كيف واجه البارون ديتيج المتهمة بالتهم التى لا تقبل أى شك، وكيف دافعت عن نفسها، مستترة وراء شبه غريب بينها وبين امرأة لا وجود لها إلا فى مخيلتها.

إنها عدوة لا يستهان بها، وستفتك بنا الواحد بعد الآخر وفى بقائها على قيد الحياة هلاكنا جميعًا، غير أنى لا أقول إنه يجب أن تموت، بل يكفى أن تختفى فقط حتى لا تستطيع أن تصيبنا بضرباتها.

(وعليه فقد عقدنا العزم على شىء.. ستمر باخرة إنجليزية بالبلد هذه الليلة، وسينفصل عنها قارب سيقترب من الشاطئ، وسنلتقى بهذا القارب ونسلم هذه المرأة لربان الباخرة فيمضى بها إلى لندن ويسجنها فى مستشفى للمجاذيب إلى أن نفرغ من مشروعنا، ولا أظن أن أحدًا منكم يعترض على ذلك.

وهنا أدرك راوول الغرض الذى يرمى إليه بومانيان، وقال يحدث نفسه:

– إنهم سيغرقونها.. ليست هناك باخرة إنجليزية، بل هناك قاربان،

أحدهما مثقوب ستوضع الكونتس فيه فيغرق بها وتختفى ولا يعرف أحد ما حدث لها.

قابل المدعوون قوله بالصمت، فحكموا بصمتهم على المرأة بالموت وهم لا يدرون.

ونهضوا جميعًا، وغادروا الغرفة واحدًا، واحدًا للعودة إلى بيوتهم، وما هى إلا هنيهة حتى لم يبق فى الغرفة إلا أوسكار دى بنيتو.

وهكذا انتهت المحاكمة، وقضى على جوزفين بلسامو بالموت.

ومرت ساعة، وبدأ الظلام يرسل خيوطه، فنظرت المرأة إلى ساعتها، وحاولت أن تجر الحديث مع بنيتو فابتسمت ابتسامة مغرية، ونظرت إليه نظرة كلها فتنة وإغراء، بيد أن بنيتو كشر فى وجهها فانزوت مكانها.

وعاد جود فرى ديتيج فى الساعة السابعة فأشعل مصباحًا، وقال لأوسكار دى بنيتو.

اذهب وأبحث عن المحفة فى المخزن.

ولما أصبح وحده مع المرأة الشابة بان عليه التردد، ورأى راوول أنه يريد أن يقول شيئًا، ولكنه يتردد وأخيرًا قال:

– صلى وابتهل إلى الله يا سيدتى.

فقالت غير فاهمة:

– اصلى وابتهل إلى الله؟.. ولماذا؟

– أردت فقط أجعلك على بينة.. هناك أوقات يصلى فيها المرء ويبتهل إلى الله كما لو كان يصلى صلاته الأخيرة.

اضطربت الكونتس وبدا الفزع فى عينيها، وأدركت حقيقة موقفها فجأة فتصلبت يداها فى عصبية شديدة وقالت:

– صلاتى الأخيرة؟.. ولكننى لن أموت.. أليس كذلك؟ إن بومانيان لم يذكر الموت، إنه تكلم عن مستشفى للمجاذيب.

ولما لم يجب صاحت تقول:

– أوه.. رحماك يا ربى، إنه خدعنى.. إنهم سيقتلوننى غرقًا.. أو أه.. إن هذا فظيع.. فظيع.. النجدة!.

ولكنها ما كادت تنطق بالكلمة الأخيرة حتى غطى البارون رأسها وأطبق بيده على فمها فاختنقت الكلمات فى حلقها.

وعاد بنيتو بعد قليل فوضعاها فوق المحفة وأوثقاها بها.

***

# 4 – القارب المثقوب

تكاثف خيوط الظلام، وجلس جود فرى وابن عمه بجانب ا لمحفة، واستولى عليهما الخوف من الجريمة المهولة المقبلين عليها .

وتملكهما انفعال كبير، وبعد أن نام جميع الخدم، وتأكدا أن كلاريس فى غرفتها حملا المحفة وخرجا من القصر، واجتازا الغابة فى طريقهما إلى النهر.

وبلغا سلم الأبرشية، وكان طويلا وضيقًا، فوجدا صعوبة كبرى فى النزول، ولما وصل إلى نهايته كانا يلهثان بشدة، واقتربا من القاربين، وكان البحر هادئًا، فوضعا المحفة داخل القارب وهما يرتعشان من الخوف.

واستقلا القارب الثانى، وجعل جود فرى يجدف بينما أمسك بنيتو

بحبل مربوط بالقارب الأول وراح يشده خلفهما.

وقطعا شوطًا كبيرًا، وزاد خوفهما فجأة، فكف جود فرى عن التجديف وقال:

- إننا قطعنا شوطًا كبيرًا فلتفرغ من هذه المسألة.. انزع الفلينة.

- بل انزعها أنت.

فدفع جود فرى ابن معه جانبًا ثم أمسك بالحبل وجر القارب إليه ثم انحنى ورفع الفلينة بيد مرتجفة.

وسمع الماء يندفع من الفجوة التى أحدثها الثقب، فكاد يفقد عقله، وأراد أن يعيد الفلينة مكانها غير أن بنيتو لم يمهله فضرب المجداف فى الماء والعرق يتصبب من جبينه وابتعد بالقارب، فصاح جود فرى يقول: قف، قف... إننى أريد أن أنقذها.

ولكن بنيتو لم يصغ إليه فما هى إلا هنيهة قصيرة حتى كان القارب قد ابتعد بهما، وغاب القارب الآخر عن ناظريهما أما الكونتس فقد انتظرت الموت فى هدوء، فلم تحاول أن تصرخ أو تصيح طالبة النجدة.

ومال القارب على أحد جانبيه فحسبت أنه يميل تحت ثقل الماء وأنه سيغوص بها فى الأعماق، وأدهشها أنها لم تحس ببرودة الماء، وأدهشها

أكثر أن القارب لا يزال على سطح البحر، وبقى مائلا فأدركت أن شخصًا متعلقًا به وتساءلت من يكون ذلك الشخص، وفجأة سمعت صوتًا رقيقًا مرحًا يقول:

– اطمئن.. أنا صديق أتيت لإنقاذك.

وانحنى الصديق فوقها، وأسرع يقول حتى من غير أن يتأكد إن كانت قد سمعته أم لا.

– لم يسبق لك أن رأيتنى، اسمى راوول.. راوول داندريزى كل شىء على ما يرام إننى سددت الثقب بقطعة الفلينة، وهو إصلاح مؤقت ولكن فيه الكفاية الآن، ثم إننا سنتخلص من هذا الحجر الكبير.

وقطع قيود المرأة بسكين، وأمسك بالحجر وبذل جهدًا كبيرًا حتى رفعه وألقاه فى البحر، ثم كشف عن رأس المرأة الشابة وانحنى أمامها وقال:

– ما أشد سرورى! جرت الأحداث بأفضل كثيرا مما كنت أرجو، وها أنت قد نجوت، لم يجد الماء الوقت الكافى لكى يرتفع إليك، هذا من حسن حظك، هل تتألمين؟

همست بصوت يكاد لا يسمع:

– نعم، كاحلى.. إنهم شددوا القيد كثيرًا.

– لن يكون هذا بشىء.. المهم الآن هو أن نمضى إلى الشاطئ، لا ريب أن جلاديك الاثنين قد بلغا الشاطئ ويرتقيان السلم مسرعين، ليس هناك ما نخشاه إذن.

وأخذ يعمل بسرعة ومهارة، فتناول مجدافا كان قد أخفاه فى المؤخرة، وراح يجدف بطريقة جانبية حتى لا يراه أحد من الشاطئ، وهو يتابع تفسيراته فى لهجة مرحة كما لو أنه لم تحدث تلك المأساة.

– آه، ولكن اسمحى لى أن أقدم نفسى أولا، رغم أننى لست فى حالة لائقة، فكل ما أرتديه عبارة عن شورت علقت به سكينًا.. أنا راوول داندريزى فى خدمتك، مادام القدر قد شاء ذلك.. وهو قدر بسيط وجميل..

مجرد حديث استرقت السمع إليه، وعلمت منه أنهم يدبرون مؤامرة ضد امرأة، فسبقتهم عندئذ وأسرعت إلى الشاطئ، وعندما ظهر ابنا العم أسرعت وغطست فى الماء، ولم يبق أمامى عندئذ إلا أن اتشبث بقاربك وهذا ما فعلت، ولم يفطن أى منهما أنهما يصطحبان مع ضحيتها بطلا فى السباحة عاقدًا عزمه على إنقاذها، سوف أروى لك

كل هذا بالتفصيل فيما بعد، عندما تسمعيننى أما الآن فيخطر لى أننى أتكلم فى فراغ.

وتوقفت لحظة فقالت:

- إننى أتألم... أنا مرهقة.

- إليكي نصيحة إذن.. افقدى وعيك.. فلا شىء يريح أكثر من فقدان الوعى.

ولا ريب أنها أطاعته، لأنها بعد بضعة تأوهات راحت تتنفس فى هدوء وانتظام، وغطى راوول وجهها وانطلق من جديد وهو يقول:

- هذا أفضل، أستطيع الآن أن أتصرف دون أن أقدم حسابًا لأحد.

ولم يمنعه ذلك من أن يناجى نفسه بكل الارتياح الذى يشعر به المرء نحو نفسه ونحو أفعاله.. وانطلق القارب بكل سرعة تحت تجديفة، وظهرت صخور الشاطئ.

وعندما اقتربت مقدمة القارب من الصخور، وثبت منه ثم حمل المرأة الشابة بكل البساطة التى سمحت له بها عضلاته القوية ووضعها على الشاطئ وهو يقول:

- بطل ملاكمة أيضا ومصارعة رومانية كذلك، سأعترف لك

مادمت لا تسمعيننى بأننى ورثت كل هذه المزايا عن أبى.. وغيرها الكثير أيضًا.. ولكن كفى هزرًا، استريحى هنا، تحت هذه الصخرة، بعيدًا عن خطر الأمواج الغادرة، أما أنا فسأعود وأعتقد أن من بين مشروعاتك الانتقام من ابنى العم، ولهذا فيجب أن لا يجدا القارب، وأن يعتقدا أنك غرقت فعلا وإذن فصبر جميل.

ومن غير أن يضيع دقيقة واحدة قام راوول بإنجاز كل ما قال، فعاد بالقارب إلى عرض البحر من جديد ورفع قطعة الفلين، وإذ تأكد من أن القارب سيغرق بعد قليل، ألقى بنفسه فى الماء، وعندما عاد إلى الشاطئ استرد ثيابه، وكان قد أخفاها فى أحد التجويفات، وتخلص من الشورت المبتل وارتدى ثيابه، وقال وهو ينضم إلى المرأة الشابة:

– هلمى بنا، علينا أن نصعد الآن، وليس هذا بالأمر الهين.

وأفاقت من اغماءتها شيئًا فشيئًا، ورآها على ضوء فانوسه تفتح عينيها، وساعدها على الوقوف، ولكن الألم كان شديدًا فصرخت ووقعت من جديد، فخلع حذاءها ورأى على الفور أن جوربها ملوث بالدم، ولم يكن الجرح خطيرًا ولكنه كان موجعًا.

وربط كاحلها بمنديله وقرر الرحيل فورًا، فحملها فوق كتفه وبدأ

يصعد السلم، وكان مكونا من مائة وخمسين درجة، وإذا كان جود فرى ديتيج وبنيتون وجدا صعوبة فى هبوطها فقد كان الجهد الذى بذله راوول أشد وأصعب، واضطر إلى التوقف أربع مرات وهو يتصبب عرقًا، ويخيل إليه أنه سيتعذر عليه الاستمرار.

ومع ذلك، فقد استمر وهو لا يزال مسرورًا مبتهجًا، وعندما توقف للمرة الثالثة جلس وأرقدها على ركبتيه، وخيل إليه أنها تضحك لمداعباته التى لا تنضب، وعندئذ عاود الصعود وهو يضم إلى صدره الجسد الناعم الذى أحست يداه بملامسته.

وإذا بلغ القمة لم يفكر فى أن يستريح، فقد هبت نسمة باردة أخذت تسرى فى الأرض المنبسطة فتعجل أن يضع المرأة الشابة فى مكان آمن.

واجتاز الحقول وحملها حتى مخزن للغلال مهجور ومنعزل، أراد منذ البداية أن يصل إليه، وكان قد توقع ما سوف يحدث، فأتى فيه بزجاجتين من الماء وبزجاجة من الكونياك، وبعض الطعام.

وأغلق الباب وهو يقول: اثنتى عشرة ساعة من الأمان والنوم، لن يعكر صفونا أحد، وغدا، عند الظهر، سأحصل على عربة وأمضى بك حيث تشائين.

وهكذا انفردا وحدهما، أحدهما بجوار الآخر، بعد أعجب وأغرب مغامرة صادفته، وأصبحا بعيدان تماما عن أحداث اليوم الفظيعة.. محكمة كمحاكم التفتيش، وقضاة قساة وجلادون لا يرحمون.. بومانيان وجود فرى ديتيج.. والحكم بالموت.. والبحر، والقارب المثقوب.. كوابيس اختفت الآن.

وعلى ضوء المصباح الذى علقه لصق الجدار، مدد المرأة الشابة فوق أكياس من التبن موجودة فى المخزن، وعنى بها وقدم لها الماء فشربت، وضمد جرحها فى رفق، ووجدت الحماية والأمان فى كنفه، بعيدًا عن الدسائس والمؤامرات، وإذا لم يعد هناك ما تخشاه من أعدائها استسلمت بكل ثقة وأطبقت عينيها وغفت.

أضاء المصباح كل وجهها الذى ساعدت حمى الانفعالات على احمراره، وجثا راوول أمامها، وتأملها طويلا.. وكان جو المخزن الحار قد ثقل عليها ففتحت قميصها ورأى راوول كتفيها الجميلتين، واستدارة عنقها الذى يفيض سحرًا وفتنة.

وتذكر البقعة السوداء التى أشار بومنيان إليها، ولم يستطع أن يقاوم الإغراء، وأراد أن يتأكد إذا كانت تلك البقعة موجودة حقا، فأبعد

القماش ورأى على اليمين شامة صغيرة على البشرة البيضاء الناعمة فتمتم:

- تسلطت على الشاب نفس الاعتقادات التى تسلطت على بومانيان وأصدقائه، وحيره أمر عمرها، فجعل يسألها كما لو كان ينتظر ترد عليه وهى فى سباتها، وكانت شفتاه قريبتين من شفتيها، وأحس بأنفاسها تسلل إلى خياشيمه، فأخذته النشوة وطبع عليهما قبلة ملتهبة.

تنهدت جوزفين، وفتحت عينيها، ولما رأت راوول جاثيا بجوارها احمر وجهها بحمرة الخجل، وابتسمت ثم أغمضت عينيها ثانية وعادت إلى سباتها.

فقد راوول عقله، وغلى الدم فى عروقه من فرط الرغبة والإعجاب، وراح يتمتم بعبارات ملتهبة ويقول:

- ما أجملك لم أكن أعرف أن فى الدنيا مثل هذا الجمال.. كفى عن الابتسام.. إننى أفهم الآن لماذا يعملون على إيلامك، فإن ابتسامتك تثير الاضطراب وتخلب الألباب.. وهم يريدون أن يمحوها حتى لا يراها أحد بعد ذلك، آه.. لا تبتسمى إلا لى أنا وحدى.. أرجوك.

ثم أردف يقول فى شغف أكثر:

- جوزفين بلسامو.. ما أحلى اسمك، وشد ما يحيطك به من غموض، قال بومانيان إنك ساحرة.. ولكن لا.. إنما أنت فاتنة.. ظهرت من الظلمات، وكأنك نور من الشمس.

(جوزفين بلسامو التى تتدفق فتنة وسحرًا.. آه.. كل هذا يتفتح أمامى.. كل ما أراه إنما هو سعادتى.. إن حياتى بدأت فى اللحظة التى أخذتك فيها بين ذراعى.. لم أعد أذكر شيئًا عداك.. ولا أمل لى إلا أنت.. رباه.. رباه.. ما أجملك.. إننى لأكاد أبكى يأسًا.

قال لها كل ذلك وهو منحنى فوقها، فمه قريب من فمها، ولكن القبلة المختلسة كانت الملامسة الوحيدة التى سمح بها لنفسه، فلم يكن فى ابتسامة جوزفين بلسامو لذة واشتهاء فحسب وإنما كان فيها من الاحتشام ما جعل راوول يشعر نحوها بالاحترام بحيث انتهى شغفه وولهه بكلمات خطيرة مفعمة بإخلاص صبيانى.

- سأساعدك، لن يستطيع الآخرون إلحاق أى ضرر بك، إذا أردت أن تبلغى، رغمًا عنهم، الهدف الذى يسعون إليه فإننى أعدك أنك سوف تفلحين، سأكون دائمًا سواء بعيدًا عنك أو قريبًا منك، ذلك الذى يدافع وينقذ فثقى فى إخلاصى لك.

ونام أخيرًا وهم يتمتم بكلمات ووعود لا معنى لها، وكان نوما.

عميقًا لا تتخلله أية أحلام كنوم الأطفال الذين يحتاجون إلى تجديد قواهم المرهقة.

ودقت ساعة الكنيسة إحدى عشرة دقة راح يحصيها وهو فى دهشة متزايدة:

– الحادية عشرة صباحًا.. أهذا ممكن؟

وتسلل نور النهار من خلال نافذة المخزن ومن الكوة التى فى سقفه وقال:

أين أنت إذن؟...

إننى لا أراك.

وكان المصباح قد انطفأ فجرى نحو النافذة وفتحها على مصراعيها، فامتلأ المخزن بالنور ولم ير أثرًا لجوزفين.

واندفع نحو أكياس التبن وراح يقلبها ويلقيها بصرًا فى غضب، ولكنه لم يجد أحدًا، فقد اختفت جوزفين بلسامو.

وأسرع إلى الخارج، ودار ببصره فى الأرض الفضاء ولكن عبثًا، فرغم أنها جريحة ولا تستطيع أن تضع قدمها على الأرض غادرت

المخزن وعبرت الأرض المنبسطة.

وعاد إلى المخزن لكى يقوم بتفتيش دقيق، ولكنه لم يكن بحاجة إلى أن يبحث طويلا فقد رأى على الأرض قطعة مربعة من الورق المقوى التقطها فإذا هى صورة للكونتس دى كاليو سترو.

وفى ظهرها سطران بالقلم الرصاص.

(شكرى لمنقذى، ورجائى أن لا يحاول رؤيتى ثانية.

***

# 5 – أحد الفروع السبعة

عاد راوول إلى دراجته وهو يسأل نفسه: ترى هل كل ما رآه وسمعه أضغاث أحلام غريبة ومضحكة ؟ !

على أنه سرعان ما أبعد عن ذهنه هذا السؤال، فقد كانت الصورة التى بين يديه أكبر دليل على صحة الأحداث التى وقعت له أخيرًا، وفوق ذلك فإنه كان لا يزال يذكر القبلة الملتهبة التى طبعها على شفتى جوزفين بلسامو.

لم يكن راوول داندريزى قد عرف الحب قبل الآن، فقد كان يشغله عنه أطماع كثيرة.. كان يتوق إلى المجد والشهرة وإلى الجاه والثروة.. وقد ترك الظروف تسير كيفما تشاء معتمدًا على ماله من قوة فائقة وإرادة صلبة وذكاء خارق.

قضى يومين فى عزلة تامة فى الغرفة الأرضية التى يشغلها فى حافة القرية، قضاها فى تفكير متواصل.. وفى مساء اليوم الثالث خرج يتمشى فى الضواحى.. أى فى نفس الأمكنة التى يحتمل أن يلتقى فيها بجوزفين بلسامو.

كان يعتقد أن المرأة الشابة لن تعود إلى بريس لكى تحمل أعداءها على الاعتقاد بموتها ولكى تستطيع أن تدبر مشروعاتها فى الانتقام منهم، وكان يعتقد، من ناحية أخرى، بأنها لا يمكن أن تكون قد ابتعدت عن المكان الذى يعسكر فيه الأعداء.

وفى اليوم الخامس جاءته رسالة من كلاريس تقول فيها:

(هل انتهى كل شىء يا حبيبى؟..

كلا، أليس كذلك؟

إننى أبكى، فليس من الممكن أن تكون قد مللت حبيبتك كلاريس، إنهم سيستقلون القطار هذا المساء ولن يعودوا إلا فى اليوم التالى.. إنك ستأتى أليس كذلك؟..

إنك لن تتركنى أبكى).

رسالة حزينة من فؤاد حزين، ومع ذلك لم يرق قلب راوول، فقد

فكر فى الرحلة التى أخبرته بها، وأدرك أنهم ذاهبون للسفر وراء الغابة التى ذكرها بومنيان أثناء اتهامه للكونتس دى كاليو سترو، واستقرت نيته على أن يتبع البارون وأصدقائه، ويعرف الغابة التى يسعون إليها.

وفى الساعة السابعة من مساء اليوم نفسه، تنكر فى زى صياد، واستقل نفس القطار الذي استقله البارون ديتيج وأوسكار دى بنيتو، ونزل البارون وابن عمه فى محطة صغيرة، فتبعهما راوول وقضى الليل فى فندق صغير.

وفى صباح اليوم التالى جاء دورمون وورولفيل وروسكس دشييه فى عربة، واصطحبوا صديقيهما من القصر فتبعهم راوول.

توقفت العربة بعد نحو عشرة كيلو مترات أمام قصر يعرف باسم قصر جور، ولما اقتربوا من القصر رأى راوول عمالا يحفرون وينقبون فى ممرات الحديقة وهماشيها.

وكانت الساعة العاشرة صباحًا، واستقبل رئيس العمال الرجال الخمسة، واندس راوول بين العمال دون أن يلحظه أحد وأخذ يسألهم، فعلم أن المركيز دى رولفيل اشترى قصر جور، وأن عملية الحفر والتنقيب بدأت صباح اليوم بالذات وأنهم يبحثون عن شيء ثمين مخبأ

فى القصر.

وراح راوول يسأل نفسه عما يفتشون؟

وتمشى فى الحديقة، ودار حول القصر، ونزل إلى أقبيته، ودقت منتصف الساعة الثانية عشر دون أن يجد شيئًا، فصعد ورأى الرجال الخمسة واقفين فى الحديقة، وكان يحيط بها اثنى عشر عمودًا تكاد تتداعى.

وكان جود فرى ديتيج قد أخرج لفافة تبغ وفتش فى جيوبه فلم يجد ثقابا فاقترب من راوول وطلب منه شعلة.

ناوله راوول سيجارته، وبينما كان البارون يشعل سيجارته كان قد أعد خطة فى رأسه، فرفع قبعته الرخوة، وأنزل شعره المستعار، فما كاد البارون يراه حتى صاح يقول:

- أنت؟..

- ومتنكر! ما هذه الجرأة؟

- لقد انتهى كل شىء ومن المستحيل أن أزوجك ابنتى.

أمسك راوول بذراعه وقال له فى لهجة قاطعة:

- رويـدك، إننى ما أتيت لكى أحدثك عن ابنتك، استدع

أصدقاءك سأقدم لكم خدمة جليلة عما تبحثون؟

عن شمعدان ذى سبعة فروع؟

إننى أعرف مخبأه، سأسدى لك خدمات لن تنساها، وبعد ذلك نتكلم فى زواجى من ابنتك.

تردد جود فرى، ولكن راوول كان قد نجح إلى حد بعيد فى التأثير عليه فدعا أصدقاءه وقال لهم:

- إننى أعرف هذا الشاب، وهو يقول إنه قد يجد.

قاطعه راوول قائلا:

- أنا لا أقول (قد) فأنا من أهل هذا البلد، وكنت ألعب مع أطفالها وأنا صغير، وقد أرانا البواب حلقة فى أحد جدران قبو هذا القصر وأنا صغير وقال لنا (يوجد مخبأ هنا، وقد رأيت فيه آثار وتحف).

- القبو؟.. إننا فتشناه.

قال راوول: ولكنكم لم تفتشوه كما يجب.. سأقودكم إليه.

وتقدمهم، وهبط درجًا أفضى إلى ممشى طويل وقال:

- الغرفة الثالثة على اليسار.

وأدخلهم جميعًا فى قبو مظلم منخفض، وقال روكس دشييه:

- إننى لا أرى شيئًا.

قال راوول: إليك علبة ثقاب، لقد رأيت شمعة على السلم، سأذهب وأحضرها إليكم.

قال ذلك وخرج، وأغلق باب القبو وراءه بسرعة وأدار المفتاح فى القفل وصاح يقول:

- ابحثوا عن الشمعدان كما يحلو لكم، ستجدونه تحت البلاطة الأخيرة وقد التفت به خيوط العنكبوت.

- وما كاد يفرغ من قوله حتى أخذ الرجال يدقون على الباب بقبضاتهم وينقضون عليه بمناكبهم وهم يصيحون فى غضب، فى حين أسرع راوول وصعد الدرج، واختطف كأسًا من أحد العمال وجرى إلى العمود التاسع وأهوى بالفأس فوقه وأحدث فيه فجوة كبيرة، ثم أدخل يده وأخرجها بفرع نحاس يعلوه الصدأ.

كان فرع شمعدان كبير من الشمعدانات التى ترى فوق المذابح.

وكان الرجال الخمسة قد حطموا الباب، وصعدوا الدرج مسرعين، فلما رأوا فرع الشمعدان صاحوا يقولون:

- اللص.. اقبضوا عليه.. اللص!

ولكن راوول اندفع ورأسه إلى الأمام وشق له طريقًا بين العمال، وقفز من فوق السور إلى الخارج، وراح يجرى بين الخرائب المهجورة، وتبعه العمال والرجال الخمسة وهم يصيحون.

وبينما هو ممعن فى الهرب رأى كنيسة فعرج إليها وأبصر سورًا فى وسطه باب فاتجه إليه، وما كاد يقترب منه حتى فتح وظهرت منه يد وسمع صوتًا يقول: تعال.

كان الصوت صوت جوزفين بلسامو.

أوصدت الكونتس الباب فى وجه مطارديه، ثم أسرعت بالشاب إلى السور المقابل، ففتحت بابًا خرجا منه إلى مقبرة القرية فاجتازاها، وخرجا إلى أرض فضاء رأى راوول عربة ذات جوادين واقفة فيها، وكان يجلس فى مكان القيادة رجل أشيب اللحية.

وقالت جوزفين: أسرع إلى طريق لونيراى ودودوفيل يا ليونار، ألهب السائق جواديه، وانطلقا بالعربة فى سرعة لا تنتظر منها.

أما راوول فقد جثا على ركبتيه أمام الكونتس، وراح يبثها غرامه:

- أنت؟.. أنت؟.. ما أبدع هذا! وما أشبهه بإحدى المسرحيات، فى اللحظة التى أوشكوا أن يقبضوا على فيها ويبطشوا بى تظهرين

فتنقذينى بدورك، آه، شد ما أحبك.. إننى أحبك منذ سنين، منذ قرن مضى نعم، إنى حبى لك قديم.. عمره مائة سنة.. ولكنه لا يزال شابًا فتيًّا.. ما أجملك وما أروع سحرك وفتنتك، شد ما أحب هذه الابتسامة الغامضة التى تعلو شفتيك!.

وارتجف بدنه وهتف يقول:

- آه.. إنك لا تصدقينى.. إنك تقبلين حبى.. ما أسعدنى بحبك.. ما أسعدنى!

فقالت ضاحكة: ولكننى لم أقبل شيئًا، إنك تبثنى غرامك على الرغم من أنك لا تعرفنى.

- بل أعرفك.. وقد شاهدتك أثناء محاكمتك.

ارتسمت على وجهها أمارات الجد وسألته قائلة:

- محاكمتى؟..

- وهل حضرتها؟

- نعم، حضرتها.. إننى أعرف من أنت يا ابنة كاليو سترو.. عمرك مائة سنة... و... وأنا أحبك.

غيرت الكونتس مجرى الحديث قائلة:

- سمعت أنهم سيحفرون أرض الحديقة فذهبت لأرى ما يفعلون.

- إن ظهورك لمعجزة.. وأنا الآخر أتيت بمعجزة.. فهم يبحثون منذ أسابيع وشهور عن شمعدان ذى سبعة فروع، وعثرت أنا عليه فى بضع دقائق، وتحت أنوفهم.

سألته تقول فى لهفة ودهشة:

- ماذا تقول؟ علام عثرت؟

- على فرع من فروع الشمعدان السبعة.. ها هو.

أخذت جوزفين الفرع وقلبته بين يديها وتمتمت تقول:

- نعم، إنه هو، لا شك فى ذلك، أوه.. إنك لا تستطيع أن تدرى مبلغ سرورى.

قص راوول عليها ما حدث باقتضاب، فهتفت تقول بدهشة:

- هذا غريب، ولماذا هويت على العمود التاسع دون غيره، أكان هذا صدفة واتفاقا؟

- كلا، إن الأحد عشر عمودًا يدل شكلها على أنها بنيت فى القرن السابع عشر، أما العمود الآخر، وهو التاسع، فقد كان شكله يدل على

أنه هدم ثم بنى من جديد، فلماذا هدم وأعيد بناؤه إذا لم يكن لتخبئة شيء.

سكتت جوزفين لحظة ثم قالت:

- هذه معجزة حقًّا.

فقال راوول:

- معجزة حب.

التفتت الكونتس إلى الشاب وسألته قائلة:

- هل كان بومنيان معهم؟

أجاب:

كلا، وهذا من حسن حظه

- من حسن حظه؟

- نعم وإلا لكنت خنقته، إنني أكره هذا الرجل.

- وأنا أيضًا أكرهه.

قال وهو لا يستطيع أن يكظم غيظه من فرط ما يشعر به من غيرة:

- ولكنك لم تكرهيه دائمًا!

أجابت فى توكيد من غير أن ترفع صوتها:

- هذا كذب وافتراء، إن بومنيان محتال ومخبول، سقيم فى كبريائه وقد أراد موتى لأننى صددت حبه، كل ذلك ذكرته فى ذلك اليوم ولم يعترض.. وما كان يستطيع أن يعترض.

جثا راوول على ركبته من جديد فى طفرة من الحماس وقال:

- آه، يا للكلمات الحلوة.. أنت لم تحبيه أبدًا إذن.. يا لسعادتى وفرحتى! ولكن كيف أمكن أن نعتقد هذا؟..

- جوزفين تحب بومانيان.

وضحك، وصفق بيديه، واستطرد:

- اسمعى.. أن لا أريد أن أدعوك هكذا.. إن اسم جوزفين ليس اسمًا جميلاً.. هل تريدين أن أدعوك جوزين كما كان نابليون يدعوك، وكما كانت أمك دى بوهارنية تفعل.. اتفقنا؟..

- أليس كذلك؟

أنت جوزين.. جوزينتى.

قالت وهى تبتسم إزاء تصرفه الصبيانى:

- شيء من الاحترام أولا.. أنا لست جوزينتك.

شيء من الإقدام!.. كيف هذا، إننا منفردين أحدنا بجوار الآخر.. وأن بغير دفاع، وأنا ساجد أمامك فى خشوع.. أنا خائف.. وأرتجف وإذا أعطيتنى يدك لكى أقبلها فلن أجرؤ.

***

# 6 – المطاردة

مرت العربة بعد قليل بمحطة دودفيل، وسارت في طريق تحفه الأشجار، وقالت الكونتس: لنهبط هنا. هذه الساحة ملك لامرأة طيبة تدعى الأم قاسور، ولها حافة تقع على مقربة هنا.

أنني أجئ إلى هنا في بعض الأحيان، فأستريح يوماً أو يومين. سنتناول طعام الغداء هنا ثم نرحل بعد يا ليونار.

واقتربا من الحافة، ودخلا بهوها وسمعا صوت رجل يتحدث في إحدى الغرف الداخلية فقالت:

– هذه هي الغرفة التي أتناول فيها طعامي كلما أتيت هنا. لا ريب أنها تتحدث مع بعض الفلاحين.

وما أتمت كلامها حتى فتح الباب، وخرجت منه امرأة عجوز ما

كادت تراها حتى ظهر عليها الخوف والارتباك فسألتها جوزفين في قلق:

- ما الخبر؟

تهالكت الأم قاسور فوق مقعد وتمتمت:

- أسرعي بالهرب... إن البوليس يبحث عنك، وقد فتشوا الغرفة التي توجد بها حقائبك. إن الشرطة ستأتي الآن... إنجى بنفسك وإلا هلكت.

استولى الفزع على الكونتس عندما سمعت هذه الكلمات ثم تحولت إلى راوول في توسل واستعطاف، فشحب وجهه وأمسك بذراعها وأرغمها على الخروج.

وسارت جوزفين إلى الباب، بيد أنها ما لبثت أن ارتدت قائلة:

- الشرطة... الشرطة...

وقال راوول في هدوء:

- رويدك... رويدك... أنا ضمين بكل شيء... شرطيان في الخارج... ورجلان من رجال البوليس في الداخل... إن القوة لن تجدي... أين الحقائب التي فتشوها؟

فوق... حسناً... أبقي مكانك يا مدام فاسور، وتمالكي نفسك ولا تخافي... إنني الضمين.

وأخذ بيد جوزفين وصعد معها السلم، وتقدمها إلى الغرفة التي ذكرتها له الأم فاسور. كانت الثياب والمفروشات مبعثرة على أرضيتها، فاقترب راوول من النافذة ورأى الشرطيان يترجلان عن جوادهما، فتحول إلى جوزفين وقال:

– أسرعي... يجب أن تستبدلي ثيابك... ألبسي ثوباً آخر، والأفضل أن يكون ثوباً أسود.

وعاد إلى النافذة، وأخذ يراقب رجال البوليس والشرطة. وعندما انتهت من استبدال ثوبها أخذ الثوب الرمادي الذي خلعته ولبسه. كان رشيق الجسم، معتدل القامة، وناسبه الثوب كل المناسبة وغطى ساقيه تماماً.

دخل الرجال الأربعة قلعة الحانة وسمع راوول أحدهم يسأل:

– هل أنتما واثقان من أنها تقيم هنا، عندما تأتي؟

– كل الثقة. والدليل على ذلك وجود حقيبتها. إن على إحداهما بطاقة مكتوب عليها اسمها:

مدام بللجريني، وهو اسم اللصة المشهورة التي نبحث عنها. إنها ارتكبت بعض السرقات في روان وديبب، وقد فقدنا أثرها، وعلمنا أنها استقلت القطار، غير أنها اختفت، فلم نعرف هل ذهبت إلى الهافر أو فيكامب. ووقعنا أخيراً على أثرها هنا.

قال أحد الشرطيين:

إننا رأينا امرأة تدخل الحانة ونحن قادمان.

وظهرت بالباب ثم ارتدت في الحال، كما لو أنها خشيت أن يراها أحد.

وقد لاحظت أنها تلبس قبعة عريضة، ولا ريب أنها هي التي نبحث عنها.

وكانت قبعة جوزفين لا تزال على رأسها، فانتزعها راوول ووضعها على رأسه فأخفت جزءاً من وجهه. ثم تحول إليها وقال:

– سأعهد لك الطريق... اخرجي بمجرد أن يبتعدوا، واذهبي إلى عربتك. لا تتعجلي، واحتفظي بهدوئك ورباطة جأشك. ومرى ليونار أن يتأهب للانطلاق بالعربة.

أما أنا فسألحق بك بعد عشرين دقيقة.

واقترب من النافذة، وتعلق بالمواسير، وهبط إلى الحديقة، وصرخ كما لو أنه رأى أشخاصاً يخافهم وراح يجرى مسرعاً.

ولفتت صرخته رجال البوليس، فصاحوا بدورهم وركضوا وراءه، وهم يقولون:

– إنها هي... ثوب رمادي، وقبعة عريضة.

خرج راوول إلى الشارع العمومي، وتوغل في الأحراش، وصعد أكمة ثم هبطها، ثم ارتقى أكمة أخرى، وكان قد ابتعد عن مطارديه بمسافة طويلة فخلع الثوب الرمادي والقبعة العريضة وأخفاهما وسط الأعشاب، ثم أخرج من جيبه قبعة رخوة من قبعات البحارة ووضعها على رأسه. ثم أشعل سيجارة وعاد بهدوء واضعاً يديه في جيبه.

والتقى به رجال البوليس في منتصف الطريق فاستوقفوه وسأله أحدهم قائلاً:

– قل لنا يا صاح... ألم ترا مرأة؟...

امرأة ترتدي ثوباً رمادياً؟

أجاب:

رأيتها. لقد كانت تجرى. وقد قفزت من فوق هذا السور.

اندفع الرجال نحو السور في حين أسرع هو إلى حيث العربة وقال:

– إلى ايفيتو ياليونار.

ومرا بالحانة، فرأوا رجال البوليس عائدين ومعهم الثوب الرمادي والقبعة العريضة، فضحك راوول وقال:

– لقد عثروا على ثوبك، وهم لا يبحثون عنك الآن وإنما يبحثون عن البحار الذي التقوا به في الطريق وخدعهم. ماذا يفعلون لو عرفوا أننا في العربة.

انطلقت العربة إلى طريق آخر فالتفت راوول إلى جوزفين وسألها:

– أين نذهب؟

فردت عليه قائلة:

– إلى شاطئ السين.

وكانت أمامها مرآة صغيرة رأى فيها صورة جوزفين. وما كاد يراها حتى استولت عليه دهشة كبيرة وتملكه ذهول عظيم، فقد تغيرت ملامحها وعلت وجهها الغضون والتجعدات، وارتسمت عليه أمارات الحزن والأسى، وفتحت جوزفين حقيبة يدها، أخرجت منها مرآة صغيرة ذات إطار ذهبي سكبت عليها نقطتين من سائل في قنينة

صغيرة ثم مسحتها بقطعة من الحرير ونظرت إليها.

مرت عشر دقائق، ثم خمس أخرى، في الصمت والجهد الظاهر لنظرة تركزت فيها كل إرادتها وعزيمتها. وكانت الابتسامة هي التي ظهرت أولاً، في تردد وحياء، كشعاع شمس الشتاء.

ثم غدت أكثر جرأة، كشفت عن نفسها بنقاط صغيرة انبثقت أمام عين راوول المذهولتين. وازداد ارتفاع ثنية الفم، وتشبعت البشرة باللون وبدا كأن اللحم يزداد قوة، واستعادت الوجنتان كقاطعيهما هي والذقن، وتألق كل وجه جوزفين بلسامو بالجمال والرقة.

وتمت المعجزة.

قال راوول يحدث نفسه:

- معجزة؟...

كلا، أو بالأحرى معجزة إرادة ونية صادقة صلبة لا ترضى بالفشل وتعيد النظام حيث الاختلال والارتخاء. أما الباقي.. المرأة والقنينة والقطرات السحرية فما هو إلا تظاهر وخداع.

وأخذ المرآة، وكانت قد وضعتها بجوارها وفحصها. كان من الواضح أنها هي المرآة التي تكلم عنها البارون ديتيج والتي قال إن

الكونتس دي كاليو سترو استخدمتها أمام الملكة أوجيني. وكانت جوانبها منقوشة وعلى قبضتها تاج الكونتيسة وتاريخ 1783م، والرباعية التي تتحدث عن الكنز. وأحس راوول بحاجته إلى أن يجرحها فقال:

- لقد أورثك أبوك مرآة ثمينة، فبفضل هذا الطلسم تستردين نشاطك بعد الانفعالات البغيضة.

قالت: الواقع أنني فقدت عقلي، ونادراً ما يحدث هذا.. وقد سبق أن تمالكت نفسي في ظروف أشد خطراً من هذه..

أحس راوول أن تلك المرأة التي كانت شديدة القرب منه قبل ذلك بساعتين، والتي قدم لها حبه بمرح وسرور تبتعد عنه فجأة إلى حد أنها أصبحت غريبة عنه. لم يعد بينهما أي اتصال، فإن روحاً غامضة تحيط بها في ظلمات كثيفة إلى حد أن ما يراه منها الآن يختلف جداً عما تصوره.

روح لصة... روح خفية وقلقة... عدوة النهار والوضوح... فهل هذا ممكن؟

أيمكن أن يكون هذا الوجه الصافي لوجه عذراء جاهلة، وأن تكون تلك النظرة الصافية كماء النبع، أيمكن أن يكون كل ذلك مظهراً

خادعاً؟

أحس بخيبة أمل كبيرة وهو يجتاز مدينة إيفتو الصغيرة، ولم يعد يفكر إلا في الهرب، ولكنه لم يستطع أن يتخذ القرار، الأمر الذي ضاعف غضبه. وعادت إليه ذكرى كلاريس ديتيج، وتذكر لمجرد لحظة، المخلوقة الوديعة التي استسلمت له طواعية.

ولكن جوزفين لم تتخل عن فريستها، فرغم ما رآه من ذبولها، ورغم ما طرأ عليها من تغيير، فقد تصاعدت منها رائحة عطرة مسكرة، ولامسته ثيابها. وكان في استطاعته أن يأخذ يدها الرقيقة ويطبع عليها قبلة. كانت بالنسبة له كل الحب وكل الرغبة وكل الشهوة وكل غموض المرأة الساحرة الفاتنة.

واضمحلت من جديد ذكرى كلاريس ديتيج وتلاشت، تمتم في صوت خافت لم تسمعه: جوزين... جوزين.

ولكن ما الجدوى من البوح بحبه وغرامه. هل يمكنها أن تعيد إليه الثقة الضائعة، وأن يجد في عينيها السحر الذي لم يعد له وجود.

وقفت العربة بعد قليل أمام شاطئ نهر السين، فهبطت جوزفين وتحولت إلى راوول وقالت:

– الوداع يا راوول... إن محطة ماليرية قريبة.

فسألها قائلاً: وأنت؟

– اوه، إن بيتي قريب.

– ولكنني لا أرى بيوتاً.

– إنني أقيم في هذا الزورق الذي تراه هناك.

– سأرافقك.

كان هناك طريق ضيق يقطع المرجع وسط البوص، سلكته الكونتس، وتبعها راوول، وكان الزورق في الخلفية، يخيفه ستار من الأشجار. ولم يكن باستطاعة أحد أن يراهما ويسمعهما. كانا وحدهما تحت السماء. العريضة الزرقاء.

وهناك، مرت بهما بضع دقائق، من تلك الدقائق التي تظل ذكراها في الذهن طوال العمر. وقالت جوزفين بلسامو للمرة الثانية:

– الوداع... الوادع.

وتردد أمام اليد المبسوطة للوداع الأخير فقالت:

– ألا تريد أن تضغط على يدى.

قال: نعم، نعم. ولكن لماذا نفترق.

– لأنه لم يعد لدينا ما يقال:

– هذا صحيح... ومع ذلك فنحن لم نقل شيئاً.

وانتهى بأن أخذ اليد الباردة الرقيقة بين يديه وقال: إن كلمات هؤلاء الرجال... واتهاماتهم في الحانة... أهي إذن الحقيقة؟

كان يتمنى تفسيراً ولو كاذباً ولكنها قالت:

– تريد أن تقول إنني لصة، أليس كذلك؟... لصة.

– نعم.

ابتسمت وقالت: وأنت يا صغيري؟...

ماذا تكون؟...

إذ يجب أن تكشف لي حقيقتك أنت أيضاً. من أنت؟

– اسمي راوول داندريزي.

– أنت تمزح. اسمك أرسين لوبين. وأبوك اسمه تيوفراست لوبين، وكان يعلم الملاكمة والجمباز، ويزاول مهنة تدر ربحاً أكثر وهي مهنة اللصوصية. وقد اعتقل في الولايات المتحدة وحكم عليه بالسجن

ومات فيه. واستردت أمك اسم العائلة وعاشت فقيرة عند ابن عم بعيد لها هو الدوق دي درو سوبيز.

وذات يوم اكتشفت الدوقة سرقة حلية نفيسة، لم تكن غير عقد الملكة ماري أنطوانيت (ورغم كل الأبحاث لم يعرف أحد اللص الذي قام بهذه السرقة) بذكاء كبير وبراحة شيطانية، أما أنا فأعرفه، فهو أنت. وكنت عندئذ في السادسة من عمرك.

أصغى راوول وهو ممتقع اللون ومتوتر الفكين وقال:

- كانت أمي تعيسة ومهانة وأردت إسعادها.

- بالسرقة؟

- كنت في السادسة من عمري.

- وأنت الآن في العشرين، وقد ماتت أمك، وأنت قوى، ولك إرادة كالحديد، فكيف تعيش؟

- إنني أشتغل.

- نعم، في جيوب الآخرين.

ولم تترك له الوقت للاحتجاج واستطردت:

- إنني لا أقول شيئاً يا راوول. إنني أعرف حياتك بأدق تفاصيلها،

وأستطيع أن أسرد عليك أحداثاً وقعت هذه السنة وأخرى أكثر قدماً، لأنني أتتبع آثارك منذ (وقت طويل. وكل ما سأقوله لك لن يكون أفضل مما سمعته منذ) لحظات في الحانة... رجال بوليس... وشرطة... ومطاردات. إنك مررت بكل هذا أنت أيضاً فلا داعي للوم والتجريح... وأقول لك للمرة الأخيرة: وداعاً يا راوول.

تمتم: كلا. كلا.

– بل لابد من ذلك يا صغيري، فلن ينالك منى غير الآلام والأحزان. لا تحاول أن تربط حياتك بحياتي فأنت طموح ونشيط ولك مزايا تستطيع بها أن تشق طريقك وحدك.

وأردفت تقول في صوت أشد خفوتاً:

– والطريق الذي أسلكه ليس طريق الخير.

– لماذا تسلكينه إذن يا جوزفيني؟...

هذا هو ما يخيفني بالذات.

– لقد فات الأوان.

– وفات الأوان بالنسبة لي أنا أيضاً.

– كلا. أنت مازلت شاباً فانج بنفسك، وأفلت من القدر الذي

يهددك.

– وأنت يا جوزين؟

– أنا؟... هذه حياتي.

– حياة بشعة... بغيضة.

– إذا كان الأمر كذلك فلماذا تريد أن تربط حياتي بحياتك؟

– لأنني أحبك يا جوزين.

– اليوم. ولكن ماذا يكون الأمر غداً؟... أطع الأمر الذي نصحتك به... إنني قلت لك منذ أول لقاء... لا تحاول أن تراني ثانية... فامضى.

قال راوول في بطء:

– نعم، نعم. أنت على حق. ولكن من الفظاعة التفكير في أن كل شيء سينتهي بيننا حتى قبل أن أجد الوقت للرجاء والأمل... وأنك لن تتذكريني.

– إن المرء لا ينسى من أنقذه مرتين.

– هذا صحيح... ولكن ستنسين أنني أحبك.

هزت رأسها وقالت: كلا. لن أنسى ذلك. إن حماسك وإخلاصك

وبساطتك وأشياء أخرى لا أتبينها بعد... كل ذلك يؤثر في كل التأثير.

واحتفظ كل منهما بيد الآخر في يده، ولم تفترق عيناهما وقالت له في رفق: عند الفارق الأبدي يجب إعادة ما أخذه كل منا للآخر، فأعد إلى صورتي يا راوول.

- كلا.

قالت في ابتسامة أثملته:

- سأكون إذن أكثر أمانة، سأعيد إليك بإخلاص ما أعطيتني إياه.

- وما هو يا جوزين.

- في الليلة الأولى في المخزن، بينما كنت نائمة انحنيت فوقي يا راوول وأحسست بشفتيك على شفتي.

وعقدت يديها خلف عنقه وجذبت رأسه إليها والتقت شفاههما، فقال في وجد ووله:

- آه يا جوزين! افعلي ما تريدين... إنني أحبك... أحبك.

وساروا على شاطئ السين. وتراقص البوص أمامهما وتلاعب الهواء بثيابها ومضيا نحو السعادة، دون أية أفكار أخرى، إلا تلك التي تثير بلبلة العشاق الذي تتشابك أيديهم. وقالت:

– كلمة أخيرة يا راوول... أشعر بأنني سأكون عنيفة ومتحيزة... أليس هناك نساء غيري في حياتك؟

– كلا.

قالت آسفة: آه... أتكذب هكذا حالاً؟

– أكذب؟

– وكلاريس ديتيج؟

نعم. كنتما تتواعدان في الحقول. وقد شوهدتما.

احتد وقال: هذه قصة قديمة. غزل لا أهمية له.

– هل تقسم؟

– أقسم.

قالت في صوت قاتم: هذا أفضل... أفضل من أجلها. وعليها أن لا تتسلل بيننا، وإلا جذبها إليه قائلاً:

– إنني لا أحب غيرك يا جوزفين... لم أحب أحداً أبداً غيرك.... إن حياتي تبدأ اليوم.

***

# 7 – الجواهر السبعة

قضى راوول شهراً مع عشيقته على ظهر الزورق. شهراً جميلاً نعم فيه بسعادة غامرة وصل فيه على كنوز من البهجة والفرح.

فكانا يخرجان كل يوم للنزهة في غابة بروتون وخرائب جوميج ودير القديس جورج وهو يطوقها بذراعه.

وأشرقت أسارير جوزفين وتألقت بشرتها، وخيل إليها أنها تعيش في حلم لذيذ. كان كل يوم يزيدها قرباً من عشيقها، فأحبته حباً ملك كل عواطفها وعرفت فيه معنى الهناء والشقاء.

وجاء ليونار بالعربة في نهاية الأسبوع الثالث، فركبتها الكونتس، ولم تعد إلا في المساء، وأنزل ليونار في الزورق صناديق صغيرة ملفوفة في أغطية من القماش، وفتح باباً في سطح الزروق لم يكن راوول قد

لحظه من قبل، وأنزلها منه.

وفي منتصف الليل فتح راوول ذلك الباب وفحص الصناديق فوجد بداخلها تحفاً فنية نفيسة وثياباً فاخرة مطرزة بالدانتلا.

وفي اليوم التالي ركبت العربة أيضاً. وكان راوول قد تملكه الملل فاستأجر دراجه وراح يتجول بها في القرى المجاورة.

فلما بلغ مدخل أول قرية رأى جمعاً من الناس أمام بيت فاقترب، وسأل عن سبب تجمعهم، فقيل له إن بالبيت مزاداً علنياً.

– لا بأس. فليتبع كل منا طريقه، وسنرى من منا سيكون الرابح.

ورفعت الستار في هذه اللحظة وظهرت راقصة تلبس ثياباً تتدلى منها جواهر زائفة كانت تتموج على جسدها وهي ترقص.

وكانت تضع حول رأسها شريطاً موشى بالأحجار الكريمة اللامعة المتلالئة فكان يخيل للرائي أن الأنوار فوق جبهتها ورأسها.

وانتهت الراقصة من دورها وهبطت الستار ثم رفعت وقدم فصلان من المسرحية ثم أضيئت الأنوار للاستراحة.

نهض راوول من مكانه عندئذ، وذهب إلى البنوار الأمامي الذي رأى الأصدقاء الثلاثة يدخلون فيه. ولما اقترب منه وجد الباب موارباً

فدفعه إلى الداخل في هدوء وأطل منه بحذر ولكنه لم يجد أحداً. ولما سأل عنهم قيل له إنهم غادروا المسرح منذ نصف ساعة.

وعاد إلى صديقته، ورفعت الستار في هذه اللحظة وظهرت الراقصة مرة أخرى، فنظر راوول إلى الشريط الموشى بالأحجار، وما كاد يفعل حتى بدا عليه الاهتمام، فقد كان الشريط من الذهب به سبع جواهر كبيرة مختلفة الألوان، فتمتم يقول بين أسنانه:

– سبع جواهر... هذا هو سبب قدومهم!

واستعلم عن الراقصة وعرف أن اسمها بريجيت روسلان، وأنها تقيم هي وخادمة عجوز تدعى فالنتين في بيت في ضاحية مونتمارتر.

غادر راوول الزورق في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي ومضى إلى مونمارتر، وسلك طريقاً غير ممهد حتى بلغ بيت بريجيت روسلان، وكان ملاصقاً لبيت آخر فيه طابق شاغر من السكان. وراح يسير جيئة وذهاباً كما لو كان ينتظر أحداً ثم غافل البوابة ودخل البيت وصعد إلى الطابق الشاغر، وتحقق من أن أحدا لا يراه ثم قفز من النافذة إلى سطح البيت الذي تقيم فيه بريجيت.

رأى فتحه صغيرة في السطح تؤدى إلى غرفة تستعمل مخزناً للأشياء

القديمة المستهلكة فقفز منها إلى الداخل. وكان الباب موصداً ولكنه وجد كوة في أرض الغرفة تطل على بسطة السلم فحاول أن يفتحها وفيما هو يفعل سمع في الغرفة التي تحته امرأتان تتحدثان فأدرك أنهما بريجيت والخادمة فالنتين. وساءه ذلك لأنه كان يظن أنهما في الخارج، وكان يريد أن يفتش البيت دون أن يزعجه أحد، ورأى أن ينتظر مكانه إلى أن يخلو له الجو. ولكن ما أن مرت به بضع لحظات حتى سمع جرس الباب يدق وبريجيت تصيح للخادمة قائلة:

– هذا غريب إنني لا أنتظر أحداً اليوم... اذهبي يا فالنتين وانظري من الطارق.

وسمع الخادمة تهبط ثم تعود بعد هنيهة وتقول:

– إنه سكرتير مدير المسرح... وقد أعطاني رسالة لك... وأدخلته إلى الصالون.

فضت بريجيت الرسالة وقرأت بصوت مرتفع:

«عزيزتي الآنسة روسلان، أرجو أن تعطى جواهرك لسكرتيري إنني بحاجة إليها لعمل نسخة منها، وستجدينها عند عودتك إلى المسرح..

قال راوول:

آه... الجواهر... هل يهتم المدير بهذا اللغز أيضاً؟.

وهل ستعطيها بريجيت لهذا السكرتير. وسمعها تقول:

– ولكنني لا أستطيع، فقد وعدت بأن أعطيها لشخص آخر.

ليقل للمدير أنني آسفة وأنني سأشرح له السبب هذا المساء.

خرجت فالنتين. وجلست بريجيت أمام البيانو وأخذت تعزف.

ولم يلبث راوول أن سمع شخصاً يصعد السلم بعد لحظات... وفجأة أمسكت الفتاة عن العزف وسمعها تسأل في قلق:

– من أنت؟...

آه، السكرتير... ولكن ماذا تريد يا سيدي؟

فرد الرجل قائلاً:

– لقد كلفني المدير بإحضار السبع جواهر ولذلك ترينني مضطراً إلى العودة إليك...

– ولكنني رددت عليك... ألم تقل لك الخادمة... لماذا لم تصعد معك... فالنتين... فالنتين.

فلم تسمع أي رد فصاحت تقول في خوف.

– فالنتين... آه... إنك تخيفني يا سيدي... إن عينيك...

سمع راوول الباب يصطفق، ثم مقعداً يقع أعقبه صوت شجار وعراك، ويريجيت تصيح طالبة النجدة.

عند ذلك عالج غطاء الكوة وبذل جهده حتى فتحه وتدلى منها إلى البسطة، فوجد أمامه ثلاثة أبواب كلها موصدة.

اندفع إلى واحد منها واقتحمه فوجد نفسه في غرفة أثاثها مقلوب وكل ما فيها مبعثر، فأسرع إلى الغرفة الداخلية، ورأى رجلاً منحنياً فوق امرأة طريحة فوق البساط وهو يخنقها بكلتا يديه. وكانت الفتاة تصيح في صوت متقطع تكاد الروح تفارق صاحبته.

فهجم على الرجل ورفعه عن جسد فريسته، فتدحرج الاثنان على أرض الغرفة، واصطدمت رأس راوول بالموقد فكاد يفقد رشده.

كان راوول شاباً في العشرين من عمره، نحيف الجسم في حين كان خصمه يفوقه قوة. ومع ذلك تغلب راوول عليه وطرحه أرضاً في أقل من دقيقة، ثم أسرع إلى الفتاة المسكينة وحملها بين ذراعيه ووضعها فوق الفراش.

كانت قد فقدت رشدها، فانحني فوقها، وفحص عنقها، وجدها لا تزال على قيد الحياة فأسرع إلى النافذة وفتحها على مصراعيها، ثم تحول إلى الرجل، وقلبه على ظهره، وما كاد يفعل حتى ارتد إلى الخلف مذهولاً، وقال وهو لا يصدق عينيه: ليونار... ليونار.

وقف راوول هنيهة وهو مشدوه، وأخيراً جر الرجل إلى الغرفة المجاورة وشد وثاقة إلى قاعدة مقعد مستطيل، ثم هبط السلم إلى الطابق الأرضي، وبحث عن الخادمة فوجدها مقيدة ومكممة كما كان يتوقع، ففك قيودها ورفع الكمامة عن فمها وقال لها:

أنا مخبر وقد أنقذت سيدتك فامضي إليها واعتنى بها. أما أنا فسأهتم بذلك الرجل وأرى إن كان له شركاء.

ووقف يفكر هنيهة وهو محتفظ بهدوئه وعدم اكتراثه اللذين عرف بهما فيما بعد. وأخيراً ذهب إلى الباب العمومي وفتحه قليلاً، وأطل منه في حذر، فرأى عربة الكونتس واقفة على مقربة منه.

أغلق الباب عندئذ وقد استوثق من شكوكه وعقد العزم على أن يمضي في هذه المسألة إلى النهاية مهما حدث.

وكان قد سقطت من ليونار أثناء تدحرجه صفارة خشبية كبيرة،

وعلى الرغم من الخطر الذي كان يستهدف له فقد سارع وأمسكها كما لو أن لها قيمة كبيرة. وقد استغرب لذلك وتساءل لماذا فعل ليونار ذلك.

خطر أن ليونار ربما يستعملها لإخطار شريكته. فاقترب من النافذة وأطلق صفيراً ثم ارتد وراء الستار وانتظر. وما هي إلا هنيهة حتى فتح الباب العمومي ودخلت جوزفين.

ودخلت بهدوء غريب كأن ليونار لم يرتكب شيئاً، وكأنها داخلة لزيارة صديقة لها.

وأسرع راوول فنادى فالنتين وقال لها:

- لا تنطقي بكلمة واحـدة. هناك مؤامرة تدبر ضد بريجيت روسلان، وأريد أن أكشف عنها، فالزمي الصمت.

وأغلق باب الغرفة التي فيها بريجيت وأسرع إلى الغرفة المجاورة، وكانت جوزفين قد بلغت البسطة الأولى فوقع نظرها عليه، كما رأت ليونار، مشدود الوثاق، داخل الغرفة.

ورغم ذلك فقد ظلت محتفظة بهدوئها، ولم تظهر عليها أية أمارات تدل على القلق والاضطراب، بل وقفت تفكر وتسائل نفسها كيف

جاء راوول إلى هذا البيت وماذا يفعل ومن الذي قيد ليونار؟

وأخيراً رفعت حجابها الرقيق وسألته قائلة:

– لماذا تنظر إلى هكذا يا راوول.

سكت سكتة قصيرة ثم قال وهو ينظر إليها ملياً:

– قتلت بريجيت روسلان.

– قتلت؟

– نعم... قتلها ليونار.

بان على وجهها دلائل الذعر والاضطراب، وهمست تقول:

– ليونار؟... أهذا ممكن؟

– نعم، ليونار... وقد فاجأته وهو يخنقها.

زاد اضطرابها وتهالكت على المقعد قائلة:

– آه... الشقى!... الشقى!... أهذا ممكن؟

وأردفت تقول في صوت أشد خفوتاً:

– قتلها... قتلها... أهذا ممكن... لقد أقسم لي أنه لن يقتل أبداً... آه... لا يمكنني أن أصدق. أواه... راوول... راول...

لم يدر راوول هل هي صادقة أم أنها تفتعل الحزن والجزع!

أما هي فقد رفعت رأسها وحدقت في راوول ثم أمسكت به قائلة:

– راوول... راوول... لماذا تنظر هكذا؟...

كلا، كلا... إنك لا تتهمني، أليس كذلك؟... أواه... إن هذا فظيع... هل تصدق أنني أمرته أن يقتلها... كلا. كلا يا راوول.

فدفعها عنه بوحشية وأخذ يسير جيئة وذهاباً ثم عاد إليها وأمسك بكتفيها وقال:

– أصغى إلى جيداً يا جوزين. إذا لم تذكرى لي كل ما يتعلق بهذه المسألة قبل مضى نصف ساعة فإني أقسم لك بأنني سأعاملك كما يعامل المرء عدواً لدوداً له. فأبعدك عن هذا البيت وأسلم ليونار للبوليس وأخبرهم بالجريمة التي ارتكبها في شخص بريجيت روسلان وللبوليس أن يتصرف عندئذ كما يشاء.

# 8 – إرادتـــان

وهكذا أعلن راوول الحـرب على جوزفين بلسامو. ودهشت هذه الأخيرة، فما كانت تتوقع منه أن ينقلب عليها هذا الانقلاب الفجائي الفظيع. وعاد راوول فقال:

– تكلمي... إنني لا أريد سفك دماء... لا بأس بالسرقة، ولا بأس بالسطو... أما القتل فلا... وألف لا.

ظهرت دلائل القلق على جوزفين بلسامو وأخيراً تمتمت قائلة:

– لا أستطيع ... لا أريد أن...

فضحك وقال: أتخافين على... ها... ها أطمئني يا جوزين، فأنا لا أخشى بومانيان وإنما أخشى عدواً آخر أشد منه خطراً... وهذا العدو هو أنت... تكلمي.

ولما رأت جوزفين أنه مصر على أن تتكلم قالت:

– حسناً. ماذا تريد أن تعرف؟

– كل شيء. أريد أن أعرف سبب قدومك هنا... وأن أعرف لماذا قتل هذا الشقي بريجيت روسلان.

أجابته قائلة: لقد فعل ذلك ليأخذ منها الجواهر السبع.

– وهل هذا سبب يدعوه إلى قتلها؟

– إنه لم يكن يقصد قتلها. ولكنه أراد الحصول على الجواهر السبع قبل غيره لأن بومنيان يسعى لكي يأخذها هو الآخر.

– بومنيان!... وهل تستطعين التغلب عليه وحدك؟...

أترين يا جوزين؟...

يجب أن تقبلي مساعدتي وأن نتضامن سوياً ونتعاون على بومانيان... نعم، يجب أن نتعاون معاً إذا كنت تريدين الفوز والانتصار عليه، فأنا وحدي يمكنني أن أقاومه، وبواسطتي تنجحين في مسعاك.

همست جوزين تقول أمام هذه الإرادة القوية:

– حسناً. سأذكر لك كل شيء.

ومع ذلك ترددت، بيد أنها جلست أخيراً وبدأت تقول:

– سأذكرلك كل شيء كما تريد... منذ اثنتين وعشرين سنة، أي قبل نشوب الحرب بين فرنسا وبروسيا ببضعة شهور، فاجأت عاصفة هو جاء الكردينال دي بونشوز، مطران مدينة روان وعضو مجلس الشيوخ ببلدة كو، وهو في طريقه فاضطرته إلى الاحتماء بقصر جور، وكان يقيم فيه وقتئذ شيخ طاعن في السن يشرف على الموت يدعى الشيفالية ديزوب. وقد تناول الكردينال العشاء هو والشيفالية وبينما كان الخدم يعدون غرفة الكاردينال قص عليه الشيفاليه هذه الحكاية التي سأقولها لك. وها هي، فاصغ إلى:

«قضيت يا سيدى الكردينال سنواتي الأولى بين الثورة في عهد الإرهاب، وكنت إذ ذاك يتيماً في السنة الثانية عشرة من عمري، فكنت أرافق عمتي إلى السجن حيث توزع الخبز وتواسى المرضى. وكان في السجن أناس من جميع الطبقات، كانوا يحاكمون ويعدمون في اليوم التالي لمحاكمتهم. وأثناء ترددي على السجن تصاحبت مع رجل فاضل لم أعرف اسمه، ولم أعرف لماذا سجن. وأخذت أتردد عليه كل يوم إلى أن أمن لي ووثق بي حتى مساء اليوم الذي حوكم فيه فقال لي:

– إنني سأشنق غداً يا بني، وسأموت دون أن يعرف أحد من أنا،

وهذا عين ما أردت. وإنني أرجو أن تستمع إلى كما يستمع رجل لآخر غيره. إنني سأكلفك بمهمة كبرى ستدرك ماهيتها وستعرف كيف تحافظ عليها، وأنا واثق أنك لن تذكرها لأحد.

واستطرد الشيفالية ديزوب في قصته فقال:

– وأخبرني بعد ذلك أنه كاهن، وأنه أودعت لديه ثروة كبيرة طائلة من الأحجار الكريمة والمجوهرات النفيسة، أخفاها في مخبأ غريب ببلدة كو، في مكان معرض لأنظار الجميع في جوف صخرة ضخمة كانت ولا تزال تستعمل كعلامة لحدود بعض الأملاك والحقول والأراضي والمراعي، وأن تلك الصخرة غائرة في الأرض تحوطها الأعشاب والأشواك، في آخرها تجويفتان عاديتان تغطيهما الحشائش، فكان كلما أودعت إليه جوهرة ذهب بها إلى هذه الصخرة وأزال ما حولها من تراب وأودعها بدوره ذلك المخبأ الأمين. ولما أن امتلأت تلك الصخرة ولم يقع اختيار الرهبان على مكان آخر، نقل الكاهن الجواهر في صندوق خشبي دفنه بنفسه في أسفل الصخرة قبل إلقاء القبض عليه ببضعة أيام.

«وقد ذكر لي مكان تلك الصخرة، وذكر لي كذلك عبارة تدل على

مكانها.

«وقد وعدته، نزولاً على إرادتـه أن أذهب بعد عشرين سنة، أي بعد أن يسود الهـدوء ويستتب النظام إلى تلك الصخرة وأتحقق من وجـود الجواهر المخبأة فيها، ثم أحـضر مع ذلك القداس السنوي الذي يقام احتفالاً بعيد الميلاد في كنيسة جور. «وقال لي إنني سأرى في إحدى هذه الحفلات ثياباً سوداء بجانب المذبح وأنني إذا ذكرت اسمي لهذا الرجل فسيذهب إلى شمعدان ذي سبعة فروع بيضاء في أيام الحفلات، فإذا فعل ذلك أطلعه على العبارة التي تدل على الصخرة ثم أمضى به إلى مكانها.

«وقد أقسمت له أنني سأقوم بهذه المهمة، وسأحتفظ بسرها في قرارة نفسي فلا أذكره لأحد. وأعدم الكاهن في صباح اليوم التالي، وعلى الرغم من أنني كنت لا أزل غلاماً في ذلك الوقت فقد حافظت على قسمي، ولم أبح لأحد بهذا السر. ولما أن بلغت الخامسة والثلاثين من عمري ذهبت إلى الصخرة وتحققت من وجودها، ثم ذهبت في يوم القداس إلى كنيسة جور، فرأيت الشمعدان ذي السبعة فروع، ولكنني لم أر أحداً يرتدي ثياباً سوداء بجوار المذبح.

وذهبت في العام التالي إلى الكنيسة وفي العام الذي يليه، غير أني لم أر أحداً. وهكذا، منذ خمسة وأربعين سنة وأنا أنتظر، ولكن لم يحضر الرجل، ولم تتحرك الصخرة من مكانها، ولا أدري ماذا أفعل ولا إلى من اتجه. هل أطلع الحكومة على هذا السر أم أطلب مقابلة الملك وأذكر له كل شيء. وأخيراً لزمت الصمت وإن كان ضميري لم يطاوعني، واستولت على الوساوس، وأخشى أن أموت ويدفن هذا السر معي.

«بيد أن وساوسي تبددت الليلة عندما رأيتك، فأنت بصفتك مطراناً تمثل الكنيسة، بصفتك عضواً في مجلس الشيوخ تمثل فرنسا، ولا أخشى شيئاً باعترافي لك بهذا السر، فابحث يا سيدي، وتحر، فإذا ما قلت لي لمن ينبغي أن أفضي بسر العبارة ذكرته له دون تردد.

أصغى الكردينال دي بونشوز إلى تلك القصة في اهتمام كبير، ولكن لم تلبث أمارات عدم التصديق أن لاحت على وجهه. فلما رأى الشيفالية ديزوب ذلك خرج وعاد بعد ذلك هنيهة ومعه صندوق خشبي، وقال له:

– هذا هو الصندوق الخشبي الذي كان مدفوناً تحت الصخرة... لقد وجدته في نفس المكان الذي ذكره لي الكاهن، فرأيت من الحكمة

أن أحتفظ به عندي. أعرض الجواهر التي فيه على الخبراء وسلهم أن يقدروا لك قيمتها، فإذا ما فعلوا فسوف تقتنع بصدق قصتي.

«فلما رأى الكردينال الصندوق والجواهر التي فيه وسمع إلحاح الشيفالية وعده بالاهتمام بهذه المسألة. غير أن الأحداث التي وقعت بعد ذلك حالت بينه وبين الوفاء بذلك الوعد، فقد نشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا، وأعقبها كثير من الكوارث فانهارت الملكية ودخل الألمان البلاد الفرنسية.

ولما تقدم الألمان في زحفهم إلى مدينة روان أراد الكردينال دي بو نشوز أن يرسل إلى إنجلترا بعض الأوراق والمستندات الهامة، ورأى أن ينتهز الفرصة ويرسل معها الصندوق الخشبي الذي يحتوى على الجواهر. ففي مساء اليوم الرابع من شهر ديسمبر، أي قبل دخول الألمان البلدة بيوم واحد غادر خادمة وموضع ثقته جوبر البلدة في عربة قاصداً الهافر ليستقل الباخرة المنطلقة إلى إنجلترا.

ولكن وجدت جثة جوبر بعد يومين في غابة روفري، وهي تبعد عن روان بعشرة أميال. ووجدت معه الأوراق والمستندات. أما الصندوق الخشبي فقد اختفى. وقد أسفر التحقيق عن أن الخادم المسكين هاجمته

فرقة من الألمان فقتلته وسلبته ما معه.

وتوالت الأحداث بعد ذلك، فاستقبل الكردينال في أوائل ديسمبر رسولاً أخبره بموت الشيفالية ديزوب، وقال له إن الشفالية. طلب منه، قبل موته أن يأتي إليه ويقول له هذه العبارة: أن كلمة السر التي تدل على مكان الصخرة محفورة في قاع الصندوق الخشبي. أما الشمعدان فقد أخفيته في حديقتي».

«وهكذا لم يبق شيء يدل على صحة هذه القصة... هل هي حقيقية؟

أم هي مجرد وهم من الشيفالية ديزوب... ودب الشك في قلب الكردينال شيئاً فشيئاً.

«وأخيراً عقد عزمه على أن يلزم الصمت. ولكنه كان قد سبق وكتب في مذكراته قصة الشيفالية ديزوب ونسى أن يحرقها، ووجدت بين كتبه التي عرضت للبيع بعد موته...

فسألها راوول قائلاً: ومن الذي وجدها؟

- بومانيان. وكان ينوى أن يدخل في سلك الرهبنة... ولكن عثوره على تلك المذكرات أثار أطماعه فترك الرهبنة، وجمع حوله بعض أصدقائه، وأخذوا يتحرون ويبحثون إلى أن عرفوا أن الكاهن الذي شنق

اسمه الأخ نيقولا، وأنه كان أميناً على كنوز دير فيكامب، وعثروا على مراسلات متبادلة بين بعض كنائس فرنسا علموا منها أن رهبان مدينة كو كانوا يجبون ضريبة من الكنائس الفرنسية الأخرى، وأنهم جمعوا ثروات طائلة قام مجلس مكون من سبعة أعضاء باستثمارها ولم يكن هناك من يعرف مكان هذه الثروات غير واحد من الأعضاء السبعة.

ساد صمت عميق، وحدث راوول في الكونتس كاليو سترو مفكراً، ثم قطع حبل الصمت بأن قال:

– وما دورك أنت في هذه المغامرة يا جوزفين بلسامو؟ هل تبحثين أنت الأخرى عن هذه الكنوز؟

– نعم.

– وكذلك بومنيان... وهو يتقدم في أبحاثه بسرعة. لقد كان أمس في مسرح الفارتييه، ورأى الشريط ذا الجواهر السبع الذي كانت بريجيت تضعه حول رأسها، وأراد أن يعرف الصلة التي بين هذه الجواهر السبع وبين مكان الصخرة... ولكننا سنسبقه، ونعرف هذه الصلة.

– وكيف نعرفها؟

– سأسال بريجيت روسلان.

– بريجيت روسلان؟... ألم تمت؟

– كلا. لا تغضبي يا كونتس كاليو سترو، فإنني لو لم أخدعك هذه الخدعة لما ذكرت لي شيئاً، ولتركتني أتخبط في الظلام والغموض، ولسبقنا بومنيان إلى مكان الكنوز.

وتركها وهي ترتعش من فرط الغضب ثم فتح باب المخدع، ودخل. وسمعته جوزفين يسأل بريجيت روسلان قائلاً:

– أرجو أن لا أثقل عليك يا سيدتي، ولكن هل تسمحين لي بأن ألقى عليك سؤالاً؟

– تفضل.

– من أين أتيت بالجواهر السبع.

– إنها أحجار وجدتها في صندوق خشبي قديم عثرت عليه تحت كومة من التبن في مخزن البيت الذي تقيم فيه أمي في قرية ليلبون، بين روان والهافر.

– وهل وجدت الأحجار كما هي الآن؟

– كلا. وجدتها معلقة في سبعة خواتم فضية. وقد أتى إلى رجل بالأمس وهنأني واشترى مني الخواتم ووعدت أن أبيعه الأحجار اليوم.

– وأين هذا الرجل؟... وما اسمه؟

– اسمه بومنيان، ويقطن بشارع فوجيرار.

– شكراً لك يا آنسة روسلان. إن لهذه الخواتم قيمة تاريخية كبيرة، وهناك أشخاص كثيرون يسعون للحصول عليها. وهم لا يحجمون عن اقتراف أشد الجرائم هولاً في سبيل أغراضهم. ولذلك فإنني أنصحك بالانتقال من هذا البيت والإقامة في مكان آخر لا يعرفه غيرك وغير خادمتك أسبوعاً أو أسبوعين.

وخرج راوول، ولكن جوزفين اعترضت طريقه، وكانت قد فكت ليونار فما كاد يرى لويين حتى انقض عليه غير أن جوزفين صاحت تأمره بالابتعاد عنه فانصاع لأمرها على الفور. وانثنت إلى راوول وسألته أين سيذهب فأجابها قائلاً: إنني ذاهب إلى بومانيان.

وحاولت الحيلولة بينه وبين الذهاب ولكن راوول كان قد صمم على الذهاب فلم يعبأ بقولها وخرج.

***

# 9 – الخواتم السبعة

وفي بيت بومانيان فتح له الخادم وقال له إن سيده لا يستقبل أحداً دون موعد مسبق فقال له : اذهب وقل له إني آت من قبل الآنسة بريجيت روسلان .

غاب الخادم هنيهة ثم عاد وقال: تفضل.

وقاده إلى غرفة فيها ثلاثة رجال هم البارون ديتيج وأوسكار دي بنيتو وبومنيان، فما كاد البارون يراه حتى صاح محنقاً: إنه هو... هو الذي سرق فرع الشمعدان... آه... ما أجرأ هذا الشاب!

ثم حمل عليه ولكن بومانيان تدخل قائلاً:

– اسكت يا جود فري ماذا تريد يا سيدي؟

– إنني أتيت أستأنف الحديث الذي بدأته أنت مع الآنسة بريجيت روسلان بمسرح الفارتيية.

قال بومانيان: لا يمكن استئناف هذا الحديث إلا معها هي:

– إنها أصيبت وكانت ضحية محاولة لقتلها للاستيلاء على الأحجار السبعة التي أخذت خواتمها أمس.

اضطرب البارون جود فري وابن عمه أوسكار دي بنيتو. ولكن بومانيان تمالك نفسه وجعل ينظر إلى الشاب بهدوء، وأخيراً قال له في استخفاف: هذه هي المرة الثانية التي تتدخل فيها بيننا بصورة ستضطرنا إزاءها إلى أن نعطيك الدرس يخصنا، وفي هذه المرة أتيت تهيننا، وأنت تعلم أن هذه الخواتم قد ابتعناها بموافقة صاحبتها، فما هو غرضك من هذا؟

أجابه راوول: أنت تعلم جيداً أنني لم أسرق شيئاً، وإنما أسعى إلى نفس الغاية التي إليها تسعون.

قال بومانيان متهكماً: هكذا؟... هل تتكرم وتذكر لنا هذه الغاية؟

– هي العثور على كنوز مخبوءة في جوف صخرة.

اختفت من وجه بومانيان أمارات التهكم على الفور وتمتم:

– أري أنك على علم بهذه المسألة، فمن الذي أخبرك؟

– أخبرتني بها جوزفين بلسامو، كونتس كاليو سترو.

كانت المفاجأة شديدة فازداد ارتباك بومانيان واستولى عليه الذعر

وقال: الكونتس كاليو سترو... هل عرفتها؟... متى كان ذلك؟

– عرفتها في أوائل فصل الشتاء الماضي، مثلك.

– أنت تكذب يا سيدي. فإني لم أرك معها ولا مرة واحدة.

– ذلك أنني كنت التقى بها سراً... فقد كانت عشيقتي.

اضطرب بومانيان، وانتفض بدنه واستولت عليه الغيرة. ولكنه تمالك نفسه بجهد كبير وقال: لا شأن لنا بعواطف الكونتس كاليو سترو نحوك يا سيدي. ماذا تريد؟

– أريد أن أعرف هذا. كان في مدينة كو سبعة أديرة كونت لها مجلساً من سبعة أعضاء أخذوا يجمعون ضريبة سنوية من سائر الكنائس والأديرة الفرنسية، وهذه الضرائب المجموعة كانت تودع في مكان لا يعرفه غير عضو واحد فقط... ولكل من هؤلاء الأعضاء السبعة خاتم ذو حجر كبير يختلف لونه عن الألوان الأخرى. وكل خاتم من هذه الأختام عليه اسم الكنيسة التي ينتمي صاحبه إليها. وقد اتخذ هذا المجلس رمزاً له شمعداناً ذا سبعة فروع في نهاية كل فرع منها حجر كبير مشابه للحجر الذي في الخاتم الذي تنتمي كنيسته إليه.

وقد وجدت حجراً كبيراً أحمر في نهاية الفرع الذي عثرت عليه في

حديقة كنيسة جور. ونحن نعرف الآن أن الأخ، نيقولا آخر من استؤمن على هذه الكنوز، كان كاهناً في دير فيكامب، فيكفى أن نعرف أسماء الأديرة السبعة لكي تكون دائرة البحث عن هذه الكنوز محدودة. وهذه الأسماء محفورة على الخواتم... وهذه الخواتم هي التي أريد أن أراها.

انفجر بومانيان ضاحكاً وقال: إذن فأنت تريد أن تعرف في لحظة ما بحثنا نحن عنه في شهور وسنوات...

إنني أرفض.

– سأرشد البوليس إليك أنت وأصدقاءك إذن.

– البوليس؟

– أجل. سأرشدهم إليكم كقتلة جوزفين بلسامو، كونتس كاليو سترو.

كانت تلك مفاجأة مذهلة، وكان بومانيان يتوقع من راوول كل شيء إلا هذا الأمر، فلما سمعه اضطرب كما تضطرب الريشة في مهب الرياح.

وتمتم يقول: ألديك أدلة على ذلك؟

– نعم. فقد شاهدتكم بنفسي وأنتم تحاكمونها. لقد كنت في نافذة البرج.

– إنني في عجب من أمرك أيها الشاب. ما الذي دفعك إلى أن ترمى بنفسك في فم الأسد كما يقولون. ألا تعرف أنك الآن بين أيدينا، وتحت رحمتنا؟

– لست بين أيديكم ولا تحت رحمتكم، فإنني إذا لم أعد بعد ساعة سيلقى البوليس القبض عليكم أنتم الثلاثة. إذا لم أر الخواتم السبعة وأعود قبل نصف ساعة فسيذهب صديق لي إلى مدير البوليس بالرسالة التي أرسلتها إلى البارون ديتيج لاختطاف جوزفين بلسامو وقتلها.

– الرسالة... إنني استعدتها من البارون وأحرقتها.

– بل أخذت صورة لها وضعتها أنا مكانها وهي التي أحرقتها أنت.

فتح بومانيان درجاً وأخرج الخواتم السبعة وناوله إياها في غضب مكبوت، ففحصها راوول وكتب الأسماء التي عليها في ورقة، وهي:

فيكامب، القديس سان واندريل، جومييج، فالمون كروستيه ليفالاس، سان جورج دي بوشرفيل ومو نفيلييه.

ثم أعادها البارون وسار إلى الباب، ولما بلغه التفت وقال:

– وعلى فكرة... لا تصدق ما زعمت لك بخصوص الرسالة فهي التي أحرقتها أنت ولم أنقل منها أية صورة... ولا تصدق كذلك أن هناك صديقاً ينتظر عودتي، فهذا كله كلام لا أساس له.

وأغلق الباب واختفى قبل أن يفكر بومانيان في اللحاق به.

# 10 – اليد المشوهة

قرأ راوول في مساء ذلك اليوم في إحدى الجرائد المحلية النبأ التالي: «سمع أحد الخطابين صياح امرأة صادراً من محجر في غابة موليفريية بكوديبيك.

فاتصل برجلين من رجال الشرطة. ولما اقترب الشرطيان من المحجر رأياً رجلان يحملان امرأة إلى عربة تقف بجوارها امرأة أخرى، فأسرع الشرطيان ولكن سرعان ما انطلقت العربة واختفت عن ناظريهما في جوف الظلام».

أدرك راوول على الفور أن هذه الفعلة من أفعال جوزفين بلسامو، واستنتج أن المرأة المخطوفة هي الأرملة روسلان أم الراقصة بريجيت، فأخذ يراقب زورق جوزفين وجعل يبحث ويتحرى، فذهب إلى بيت الأرملة وبحث عنها فيه فلم يجد لها أثراً.

وفي أثناء تحرياته علم أن الحطاب كوربو وولديه ينتمون إلى عصابة جوزفين وأنهم يقيمون في كهف يطل على نهر السين فاستنتج في الحال أن الأرملة سجينة في هذا الكهف.

وأراد أن يتأكد إذا كان استنتاجه هذا حقيقياً أم خاطئاً فذهب إلى الكهف وعثر على مكان منخفض بجانب الكهف فأقام فيه يومين وهو يفترش الأرض ويلتحف بالسماء. وفي اليوم الثالث سمع حديثاً بين الأب كوربو وولديه تأكد منه أن الأرملة سجينة في الكهف فعلاً، فراح يفكر في تخليصها.

غير أنه قبل أن يهديه التفكير رأى زورق جوزفين بلسامو يقترب من الشاطئ ويقف أمام الكهف. ونزلت منه جوزفين هي وليونار. ووقفت جوزفين أمام المدخل في حين دخل ليونار.

وأن الأب كوربو وولداه يهذبون حديقتهم فتمتم راوول يحدث نفسه: لقد دخل ليونار ليستجوب الأرملة روسلان.

ومرت فترة طويلة وراوول يسائل نفسه عما ينبغي أن يفعل حين طرق سمعه أنيناً وصيحات مكتومة. وقد خيل إليه أن هذه الأصوات على مقربة منه، فزحف إلى المكان الذي خيل إليه أنه سمع الصوت

صادراً منه، وعندئذ أدرك ما خفي عليه، فقد رأى أمامه صخوراً وأحجاراً مكومة عرف منها أنها بقايا مدخنة وأدرك أنها تتصل بالكهف. وانقطع الأنين عندئذ ولكنه سمع صوت امرأة تقول:

– رحماك... رحماك يا سيدي. نعم... نعم. سأخبرك بكل شيء... كان ذلك من اثنتين وعشرين سنة... عندما أخذ الألمان يزحفون على روان... وكان زوجي حينذاك حوذياً، فأتى إليه رجلان لم يرهما من قبل وطلبا إليه أن يحملهما بمتاعهما إلى الشاطيء، فحملهما زوجي، ولكن كانت الليلة ممطرة عاصفة فتعثر جوادنا وسقط ونفق. وخاف الرجلان وخشيا ظهور الألمان ومر في ذلك الوقت بعربته رجل من روان كان زوجي يعرفه وهو مسيو جوبير خادم الكردينال دي بونشوز. واستوقفه الرجلان وعرضا عليه مبلغاً كبيراً لكي يبيعهم جواده ولكن جوبير رفض رغم توسلاتهما وتهديدهما له، وأخيراً انقضا عليه في جنون وقتلاه ثم فتشا العربة ووجدا فيها صندوقاً مملوءاً بالمجوهرات اقتسماه وأعطيا زوجي سبعة خواتم والصندوق الفارغ. وقد أثرت هذه المسألة في زوجي المسكين ومات بعد قليل. ولزمت الصمت بعد ذلك ونسيت الخواتم السبعة إلى أن التحقت بريجيت

بالمسرح فنزعت أحجارها واستخدمتها في رقصاتها وهنا سمع راوول ليونار يسألها قائلاً: والصندوق؟

– لقد أخذه منى رجل، في اليوم الذي اختطفتموني فيه.

– ومن هو هذا الرجل؟

– لا أعرف. إنه رجل طيب القلب أحسن إلى كثيراً... وأنا أراه من وقت لآخر.

– وأين ترينه؟

– لا أستطيع أن أتكلم... فأنا لا أريد إيذاءه.

فصاح ليونار: ماذا؟... أتريدين أن أعود إلى تعذيبك؟

ومرت لحظة سمع راوول بعدها الأرملة تصرخ صرخة هائلة وتقول: آه... يدى... أيها الشقى!

– هل ستتكلمين؟

– نعم... نعم... أعدك بذلك.

خفت صوت الأرملة المسكينة، واستولى عليها ضعف شديد، وكاد يغمى عليها، ومع ذلك فقد أصر ليونار وألحف عليها في السؤال فتمتمت تقول:

– نعم، نعم. إننا سنتلقى يوم الخميس. عند الفنار المجهول. ولكن لا... لا... لا يجب أن أتكلم... إنى أفضل أن أموت، فافعل ما تريد.

وسمع راوول ليونار يدمدم بكلام فهم منه أن الأرملة أغمى عليها، ثم سمع صوتاً أدرك منه أن ليونار خرج إلى جوزفين.

أدرك عندئذ أن وقت العمل قد حان، فأبعد الأحجار المتكومة في حذر شديد ثم نزل في هدوء وحرص كبيرين. وكان الكهف مظلماً، وكانت الأرملة روسلان قد أفاقت من غيبوبتها ففتحت عينيها، ورأى راوول بريقها فانحني فوقها وهمس يقول:

– لا تخافي... لا تخشى شيئاً... إنني أنقذت ابنتك بريجيت من الموت وقد أتيت لأنقذك أنت أيضاً.

وحملها على كتفه، ثم فتح باب الكهف بهدوء فرأى في الخارج جوزفين وليونار يتحدثان بصوت خافت. وكانا موليانه ظهريهما، وكانت بعض العربات تقف على مسافة غير بعيدة، ففتح الباب دفعة واحدة وأخذ يجرى نحو تلك العربات ورآه كوربو وولداه فصرخوا واندفعوا إليه، وصرخ ليونار غضباً وانضم إليهم. ولكنهم سرعان ما أثروا بالهزيمة فقد اقتربت عربة آتية من الشاطئ وجاءت عربة أخرى

من الجهة المقابلة بحيث لم يعد في وسعهم مهاجمته أمام كل من راكبي العربتين، فوقفوا في مكانهم يتحرقوق غيظاً. واقتربت العربة القادمة من الشاطئ. وكان فيها راهبتان فاستوقفها راوول، ووضع الأرملة روسلان في عربتهما، وسألهما أن يعنيا بها مدعياً أنه وجدها على الشاطئ مغمى عليها لأن عربة مرت على أصابعها فهشمتها.

نظرت الراهبتان إلى المرأة المسكينة في عطف ثم أجلساها بجانبهما، وابتعدت العربة بهم. وكان الطريق قد خلا من المارة فأخرج ليونار خنجره ولكن جوزفين قالت له:

– أعد هذا، ودعنا وحدنا. وأنتم أيضاً يا آل كوربو... لا داعي لأية حماقة.

ولكن ليونار اعترض قائلاً: إن من الحماقة أن نتركه وقد أصبح بين أيدينا.

صاحت به بلهجة قاطعة: اذهب.

– ولكن تلك المرأة... تلك المرأة ستبلغ عنا.

– كلا. فليس من مصلحة الأرملة روسلان أن تتكلم.

وإذا ابتعد ليونار اقتربت من راوول وقالت له:

– الحياة نضال يا راوول، فيوم لك ويوم عليك، وكما يدين المرء يدان ولكن ماذا بك؟... لماذا تنظر إلى بهذه القسوة؟

أجابها بكل وضوح: الوداع يا جوزين:

امتقع وجهها وسألته: لعلك تريد أن نقول إلى الملتقى.

– كلا. بل أقول وداعاً. إنني لا أريد أن أراك، فأنت مجرمة لا تحجمين عن القتل ولن أنسى ما حييت منظر يد هذه المرأة المسكينة.

مدت إليه يديها في توسل وقالت:

– يدها؟... ماذا رأيت؟ هل أصابها ليونار بضرر... ولكنني أمرته أن لا يفعل. إنني حسبت أنها اعترفت له بمحض إرادتها.

– أنت تكذبين يا جوزين، فأنت قد سمعت صياح تلك المرأة المسكينة وأنينها كما سمعتها أنا... أنت قاتلة... تسفكين الدماء وأنا لا أحب أن أسفك دماً... لا أريد أن أراك.

– كلا... كلا...

ولكن راوول حول وجهه وابتعد غير عابئ بتوسلاتها.

***

# 11 – الفنار القديم

راح راوول يضرب في الأرض طول الليل على غير هدى إلى أن أخذه التعب والإعياء فعرج على حانة صغيرة في الصباح وأمر صاحبها أن لا يوقظه وناح أربعاً وعشرين ساعة.

وعندما استيقظ تذكر جوزفين فألمته ذكرى الفراق، وبرح به الوجد والشوق، وخيل إليه أنه قد انقضى على يوم فراقه لها آلاف السنين. وغلبه الحنين، وفكر مراراً في العودة إلى زورقها فيحتويها بين ذراعيه ويضمها إلى صدره ويمطرها بقبلاته الملتهبة.

وأخيراً غالب عواطفه، وعول على نسيان جوزفين وتذكر كلاريس فملأته الحسرة وعذبه وخز الضمير فكتب إليها رسالة صغيرة يقول لها فيها: «كلاريس... سامحيني يا حبيبتي... لقد كنت وغداً، ولكن أرجو أن تغفري لي".

غير أنه رغم ذلك أخذ يفكر في جوزفين، فكانت صورتها لا تفارق مخيلته، وكان يراها أينما ذهب وأينما كان، وبلغ به الوجد إلى حد جعله يفكر في أن يمضي إليها ويتمرغ تحت قدميها.

وفي مساء اليوم السابق ليوم الخميس ذهب إلى الفنار المهجور، واستكشف داخله وخارجه.

وفي اليوم التالي، عاد إلى الفنار، ولما اقترب منه حدثه شعوره بأن هذا الفنار سيكون مسرحاً لحوادث رهيبة مهولة سيكون لها في حياته تأثير كبير.

وغامره إحساس بأن المعركة الحاسمة بينه وبين العدو قد دنت، وأن هذا العدو هو الكونتس كاليو سترو بالذات، فهي التي تعلم بالموعد الذي بين الأرملة روسلان وبين الشخص المحسن إليها. وكان متأكداً من أنه سيراها، ولكنه كان يخشى أن يندفع إليها عندئذ فيحتويها بين ذراعيه رغماً عنه.

بلغ الباب ووقف قليلاً فقد خشي أن يكون هناك فخ منصوب. ولكنه سرعان ما أقصى عنه هذا الخاطر وقال:

– فخ!... ما أغباني! ولماذا تنصب لي فخاً؟

ثم فتح الباب ودخل.

وشعر فجأة بأن هناك من يختبئ خلف الباب. ولكن قبل أن يتحول ويلتف إليه أحس بحبل يحوط عنقه ويدا تجره إلى الوراء ففقد توازنه ووقع على الأرض فهتف يقول:

- أحسنت يا ليونار... أحسنت... ياله من انتقام بديع.

غير أنه خدع في ظنه، فإن الرجل لم يكن ليونارز.. وإنما كان بومانيان، ورأى وجهه وهو يقيد يديه فقال:

- آه... آه... أهو أنت يا وجه القرد؟

كان الحبل الذي يحيط بعنقه مشدوداً إلى حلقة معلقة في الحائط فوق نافذة. وفتح بومانيان إحدى مصراعي هذه النافذة قليلاً ثم شد الحبل فارتفع راوول إلى أن صارت قدماه عند حافتها، ثم قيد بومانيان قدميه.

كان راوول في موقف حرج، فقد كان معلقاً بحيث إذا حاول الحراك إلى الأمام اشتد ضغط الأنشوطة التي حول عنقه فخنقته، وإذا حاول التحرك إلى الخلف انفتحت النافذة وتأرجح في الفضاء ومات شنقاً.

وبعد أن انتهى بومانيان من عمله هذا تركه وذهب إلى الباب ووقف وراءه ينتظر وقد ضم قبضتيه.

أخذ راوول يفكر. ما سبب وجود بومانيان في الفنار؟ أيمكن أن يكون هو الشخص البار الذي تكلمت الأرملة روسلان عنه.

إن هذا الكمين لا يمكن أن يكون قد نصبه له... لا يمكن أن يكون قد نصب إلا لجوزفين بلسامو... فلا مراء أنه أدرك أنها لا تزال على قيد الحياة. لا جدال في ذلك.

أدرك راوول أنه هو نفسه السبب في أن بومانيان قد علم أن جوزفين بلسامو لم تمت، فقد كان من الغباء بحيث ذكر له أنه شاهد محاكمتهم لها. وبلغت به الحماقة إلى درجة أنه لم يفكر فيما قد ينتج عن ذلك.

لا ريب أن بومانيان قد فهم كل شيء وأدرك الحقيقة حين قال له أنه شاهد محاكمتهم لها، وعرف أن جوزفين بلسامو لا تزال على قيد الحياة وأن راوول قد سارع إلى إنقاذها بعد أن ابتعد البارون ديتيج واروسكار دي بنيتو.

لبث بومانيان في مكانه مدة طويلة. وفجأة سمع الاثنان صوت عربة قادمة من بعيد، فتحفز بومانيان للهجوم. وأراد راوول أن

يتخلص من قيوده ولكنه خشي عاقبة عمله.

وقفت العربة أخيراً أمام الفنار، وبعد فترة وجيزة سمع راوول وقع أقدام تقترب فحاول أن يصرخ ويهيب بالداخل أن لا يدخل ولكن صوته اختنق في حلقه.

وفتح الباب ودخلت جوزفين بلسامو، فهجم بومانيان عليها وتدحرج الاثنان على الأرض.

بيد أن بومانيان، على الرغم من حقده عليها تذكر حبه لها، فكان في ذاكرة هذه ضياعه، فقد نهض كالمجنون وراح يشد شعر رأسه في يأس وغضب.

أما جوزفين فقد نهضت ببطء، ونظرت إلى بومانيان لحظة ثم تحولت إلى راوول واقتربت منه وقالت:

– لقد انتظرتك طويلاً يا راوول، فلماذا لم تأت؟

– لأن كل شيء بيننا قد انتهى.

– انتهى؟... هل هذا صحيح يا حبيبي راوول.

ثارت ثائرة بومانيان حين سمع هذا التدليل، فاعتدل في وقفته على الفور وقد ازداد جنونه، وحاول أن يمسك ذراعها، ولكنها ابتعدت

عنه وهي تصرخ:

– لا تلمسني... أيها الوغد... لا تظن أنني خائفة منك... إنك لا تقوى على قتلى... فأنت جبان... إن يديك ترتجفان، أما يدى فلن ترتجفا حين تدنو نهايتك.

«إنني أحب راوول... وقد أحببته لكي أنتقم منك... ولكن حبه ملكني كلي ولا أريد أن أهجره... كنت لا أعرف الحب، ولكنني عرفته عندما رأيته... إنني أحب كل الحب... وإنني لأوثر أن أقتله من أن أعرف أنه يحب واحدة غيري. ولكنه يحبني... أتسمع... إنه يحبني.

ضحك بومانيان ضحكة هستيرية وقال:

– هل تظنين ذلك حقاً يا جوزفين؟... هل يحبك؟ إنه يحبك... نعم كما يحب غيرك... فأنت امرأة جميلة. فاتنة...

صرخت في وجهه وصاحت تقول:

– لو أتأكد مما تقول لأجعلن حياته جحيماً مستمراً.

– هل تريدين دليلاً؟

– نعم.

– كلاريس ديتيج.

- إنني أعرف ذلك... كان حباً هوائياً.

- أنت مخطئة. إنه يحبها، وينوى الزواج منها، وقد أرسل إليها يطلب غفرانها. وإليك الرسالة التي أرسلها لها فقد أخذتها قبل أن تصل إلى يدها.

تناولت جوزفين الرسالة وقرأتها فبرقت عيناها ببريق الغضب والجنون واستولى عليها الضعف وقالت:

- لقد حذرتك يا راوول... تذكر ما قلته لك.

- وتذكري ما أقول لك أنت الآن... إياك وأن تلمسي شعرة واحدة منها... تذكري هذا.

وما كاد ينتهي من قوله هذا حتى سمع صفيراً في الخارج فقالت:

- لقد صفر ليونار، أليس كذلك يا بومانيان؟... لا ريب أن الشخص الذي تنتظره قادم. ألم تأت أنت أيضاً لكي تراه؟

نقلت بصرها من بومانيان إلى راوول، فلما رأته مقيداً ومعلقاً لم تخش شيئاً من جهته، غير أنها تلبث أن نظرت إلى بومانيان في قلق، فمسكته واقتربت من الباب، وما كادت تصل إليه حتى فتح ودخل منه ليونار وعلى وجهه أمارات الانفعال الشديد.

نظر إلى الرجلين نظرة سريعة ثم انحنى ناحية بالكونتس كاليو سترو وهمس في أذنها ببضع كلمات فاستولت عليها الدهشة وتمتمت:

– ماذا تقول؟... ماذا تقول؟

وحولت وجهها حتى لا يلحظ أحد انفعالها. ولكن راوول ظن أنها مبتهجة. وقالت:

– لا تتحرك يا بومانيان. إن بعضهم قادم. أخرج مسدسك يا ليونار، ولكن بومانيان اندفع نحو الباب وحاول أن يفتحه فقالت له:

– هل جننت يا بومانيان؟... ماذا هناك؟ أبق مكانك.

غير أنه أدار الأكرة فمسكته وسألته قائلة:

– لماذا تريد أن تفتح الباب؟... هل تعرف الشخص القادم، وهل تحاول أن تمنعه من الدخول، أم أنك تريد أن تستأثر به وحدك؟

لم يهتم بومانيان بقولها وأدار الأكرة، فلما رأت جوزفين ذلك، التفتت إلى ليونار وأشارت إليه آمرة فأخرج مدية من جيبه أغمد نصفها في كتف بومانيان فتأوه قائلاً:

– آه... أيتها الشقية.

ووقع على الأرض، وجره ليونار إلى ركن من الغرفة. وفحصت

جوزفين جرحه ثم قالت:

- إن إصابته غير خطيرة.

ثم شدت وثاقه، وأسندت ظهره إلى الجدار، وعادت فوقفت خلف الباب في انتظار القادم.

ويعد دقائق سمع راوول أقداماً تقف أمام الباب فأراد أن يصرخ ولكن الصوت احتبس في حلقه كما احتبس في المرة الأولى.

وفجأة دارت رأسه وكاد يفقد صوابه، فقد انفتح الباب، وظهرت منه كلاريس ديتيج.

***

# 12 ــ جنون وعبقرية

لم يخش راوول دانديزي على حياته من بومانيان ولا من الكونتس كاليو سترو كما خشي على حياة كلاريس ديتيج.

كان يعرف أن الكونتس تحبه إلى درجة الجنون، وأنها تغار من كلاريس كل الغيرة وتتحين الفرصة لإبعادها عن طريقها.

أما كلاريس فقد حدقت فيها في دهشة ممزوجة بالخوف، ووقفت وهي كالمأخوذة أمام المسدس الذي يمسكه ليونار في يده، ثم حولت بصرها إلى راوول وقالت:

– ما الخبر يا راوول؟.. ولماذا أنت مقيد هكذا؟

وبسطت يديها إليه كأنها تطلب مساعدته أو تحاول أن تمد إليه يد المساعدة.

نظر راوول إليها وهو يشعر بألم شديد فرآها ممتقعة الوجه غائرة العينين، تدل ملامحها على أنها قضت أياماً كثيرة لم تذق فيها طعم النوم فأدرك أنها اعترفت لأبيها بهفوتها، وآلمه ذلك، ولكنه قال بهدوء:

– ليس هناك ما أخشى منه يا كلاريس. وكذلك ليس هناك ما أخشى عليك منه.

وعندئذ، وقعت عيناها على بومانيان فازدادت دهشتها وتحولت إلى ليونار وسألته قائلة:

– ماذا تريدون مني؟... ومن الذي أحضرني هنا.

قالت جوزفين بلسامو: أنا يا آنسة.

رأت كلاريس جمالها فانتقضت، والتمست العذر لراوول لوقوعه في حبالها وقالت:

– من أنت؟... إنني لا أعرفك؟

– أما أنا فأعرفك... أنت ابنة البارون ديتيج... وأعرف كذلك إنك تحبين راوول.

أطرقت كلاريس برأسها إلى الأرض خجلاً. وكأن الكلمة التي نطقت بها جوزفين قد أفقدتها رشدها. واستطردت جوزفين تقول:

– منذ ثلاثة شهور، اختطفت امرأة عند نزولها من القطار واقتيدت إلى قصر ديتيج حيث اجتمع أبوك وبومانيان وآخرون. ولن أذكر ما حدث، غير أنى أكتفى فأقول إنهم عقدوا العزم على قتل تلك المرأة فقيدوها وحملوها إلى قارب مثقوب مضى به أبوك وأوسكار دى بنيتو إلى عرض البحر ثم تركاها وعادوا إلى القصر.

– كلا... كلا... هذا غير صحيح... لا يمكن أن يكون أبى قد فعل ذلك. غير أن جوزفين استأنفت حديثها غير عائبة باعتراضها فقالت:

– وقد شاهد رجل محاولتهم تلك فسارع إلى إنقاذها... فمن أين أتى هذا الرجل... كل القرائن تدل على أنه قضى اليوم في غرفتك. ليس بصفته خطيباً ولكن بصفته عشيقاً.

ازداد خجل الفتاة وصدر منها أنين يدل على الذلة والانكسار، وقالت:

– أواه يا سيدتى... ماذا تقولين؟

– إننى أعيد ما اعترفت أنت به لأبيك. هل أقول لك ما حدث في نفس اليوم الذي استسلمت فيه لراوول داندريزى؟... في نفس اليوم الذي لطخك فيه بالعار؟... لقد هجرك ونبذك، وتبع المرأة التي

أنقذها وأقسم لها أنه لا يحبك وأن حبه لك كان حباً هوائياً.

«ولكن حدث سوء تفاهم بين راوول وبين عشيقته الجديدة، واكتشفت أن راوول راسلك، وكتب لك رسالة يقول لك فيها إنه نادم ويسألك الصفح والغفران... هذه المرأة هي أنا... وهذا هو سبب عدائى الشديد لك.

سكتت كلاريس ولم تتكلم... وداهمها خوف شديد، ونظرت إلى جوزفين وهي لا تستطيع أن تتحرك، فلما رأى راوول ذلك، هتف يقول:

- لا تخشى شيئاً يا كلاريس... إننى أقسمت أن لن يمس أحد شعرة واحدة من رأسك... لا تخافي... ستخرجين من هنا سالمة بعد عشر دقائق... لا أكثر.

وتابعت الكونتس كاليو سترو حديثها قائلة:

- سأذكر الآن القصة التي تهمنا. إن أباك وبومانيان يسعيان إلى هدف أسعى أنا إليه، كما يسعى إليه راوول. وقد نشأ بيننا عداء مستحكم، وحاول كل منا، ولا يزال، أن يسبق الآخر، وقد اتصلنا جميعاً بأرملة عجوز تدعى مدام روسلان، كان عندها صندوق خشبي

نحن بحاجة إليه لكي نبلغ الهدف الذي نسعى إليه.

«وقد استجوبنا هذه السيدة بكل الطرق وبشتى الوسائل، فعلمنا منها أنها أعطت الصندوق لشخص لم تشأ أن تذكر اسمه لأنه أحسن إليها كثيراً. ولكننا عرفنا منها قصة قديمة سأذكرها لك بإيجاز لأنها تهمك كما تهمنا.

صاح راوول: كلا... كلا... لا تذكرى شيئاً يا جوزين... لا تقولى شيئاً.

بيد أنها تظاهرت بأنها لم تسمعه واستطردت تقول:

– منذ اثنتين وعشرين سنة، أي أثناء الحرب بين فرنسا وبروسيا، هرب رجلان في عربة مسيو روسلان، وقتلا في الطريق خادماً يدعى جوبر للاستيلاء على جواده، ثم سلباه صندوقاً مملوءاً بالجواهر الثمينة واقتسماه، وتخليا عن الصندوق وسبع جواهر لمسيو روسلان، الذي مات غماً وكرباً. وقد خشى القاتلان ثرثرة الأرملة فاتصلا بها وأغدقا عليها المال، وأظن أنك أدركت الآن من هما هذان القاتلان؟

كانت كلاريس تصغى في فزع شديد وهي تقوى على الحراك، فلما رأى راوول ذلك صاح يقول:

– اسكتى يا جوزين. اسكتى... ما الفائدة من كلامك هذا؟

فقالت: ما الفائدة؟... لأن الحقيقة يجب أن تعرف. يجب أن تتألم كما أتألم أنا.

فتمتم يقول في غضب: ما أشد قسوتك!

غير أنها لم تعبأ بقوله وتحولت إلى كلاريس وأردفت:

– وفر أبوك وابن عمه بنيتو بعد ذلك وسائل الراحة لمدام روسلان، واشترى لها بيتا في ليلبون لكي تكون تحت مراقبته، وأخذت أنت تترددين وتلعبين مع ابنتها بريجيت، فأحبتك ومالت إليك.

«وفي إحدى هذه المرات وقع نظرك على الصندوق الخشبي الذي نبحث عنه، أنا وراوول، فراق لك وأخذته معك إلى قصر أبيك، وعندما عرفت أنا وراوول أن الصندوق أخذه منها شخص لم تشأ أن تذكر اسمه، وأن هذا الشخص يغدق عليها بالمال وأنه وفر لها وسائل الراحة، وأنهما يلتقيان من وقت لآخر عرفنا في الحال أنه يكفى أن نأتى إلى الفنار المجهول بدلاً من مدام روسلان لكي نعرف الحقيقة التي نبحث عنها.

لزمت كلاريس الصمت واغرورقت عيناها بالدموع، فلم يشك

راوول في أنها كانت تجهل جرم أبيها، وتأكد أنها تألمت حين علمت أن أباها قاتل، والحق أن جوزفين بلسامو قد أصابت بسهمها، فانتقمت من كلاريس أروع انتقام.

كان ألمها شديداً... أبوها قاتل؟... أحق هذا؟ أم أن الكونتس كاليو سترو تكذب وتفترى؟

وكانت الكونتس أدركت ما يجول في خاطرها فقالت:

– نعم، إن أباك قاتل. إن أمواله وقصره وجياده أتته من الإجرام. أليس كذلك يا بومانيان؟... إنك عرفت سره فراحت تهدده، وانتهزت جريمته الأولى فأرغمته على قتل الذين يضايقونك، أليس كذلك؟

بحثت عيناها عن عين راوول، وكأنها تعتذر عن الجرائم التي اقترفتها هي بأن ذكرت جرائم البارون، ولكنه قال لها في صوت خشن غليظ:

– وماذا تريدين منها الآن؟ ماذا تريدين من هذه الفتاة المسكينة؟

– أريد منها أن تتكلم.

– وهل تطلقين سراحها إذا تكلمت؟

– نعم.

– إذن، إسأليها... هل تريدين أن تعرفي العبارة المحفورة في قاع الصندوق؟

وكان ألم كلاريس شديداً، وكان الضعف قد اعتراها وأوشكت أن تقع على الأرض من فرط الإعياء. وهتف راوول يشجعها:

– تشجعي يا كلاريس... أجيبها على الأسئلة التي ستلقيها عليك... أجيبها ولا تخشى شيئاً فإنك له تصابى بسوء.

ورأى راوول أن لهجته قد أعادت إلى الفتاه شجاعتها فقال:

– ماذا فعلت بذلك الصندوق؟... هل ذهبت به إلى القصر؟

– نعم.

– لماذا؟

– رأيته فراق لي منظره.

– وهل رآه أبوك؟

– نعم.

– وهل أخذه منك؟

– أجل.

- لماذا؟

- لا أدرى

- هل رأيت في قاعة كلمات محفورة؟

- أجل.

- وما هي.

- لا أظن أننى أتذكرها.

قال راوول: بل يجب أن تتذكريها... نعم، يجب.

- إننى لم أهتم بها، لأنها كلمات لم أفهم لها معنى. ولكننى أتذكر أننى قرأت بينها كلمة صخرة.

- يجب أن تتذكرى يا كلاريس... يجب ذلك.

فكرت كلاريس، وارتسمت على ملامحها أمارات الاجتهاد، وأخيراً تمتمت تقول

- نعم... إننى أتذكر... ها هي الكلمات التي قرأتها: إنسان لبيب سوف يجد هذه الصخرة.»

صاحت جوزفين تقول في غضب:

– أنت تكذبين... لقد كنا نعرف هذه الكلمات... توجد كلمة واحدة أخرى... فاذكريها.

لزمت كلاريس الصمت وقد تملكها خوف عظيم، فاستحثها راوول قائلاً:

– فكري يا كلاريس... تذكرى... ألم ترى كلمة أخرى.

– كلا. لا أظن أننى رأيت كلمات أخرى.

– تذكرى... يجب أن تتذكرى، فإن حياتك متعلقة بهذه الكلمة. وكانت لهجته رقيقة تدل على مبلغ اهتمامه بها، فاستولى الغضب على جوزفين بلسامو واشتعلت نيران غرامها فأمسكت بيد كلاريس وقالت في لهجة قاسية:

– تكلمى... تكلمى وإلا تركت ليونار يتولى أمرك.

جمع راوول كل عضلاته وحاول الخلاص وهو يقول:

– أيتها الشقية... ماذا ستفعلين بها؟ ألا تعرفين معنى الشفقة والرحمة؟

هل قد قلبك من حجر. ليونار... الويل لك إن مسست هذه الفتاه بسوء.

فقالت جوزفين في سخرية:

– هل تحبها إلى هذه الدرجة؟ أيحز في قلبك أنها ستتعذب. إن الطيور على أشكالها تقع، فهي ابنة قاتل أثيم وأنت لص.

وانثنت إلى كلاريس وقالت:

– نعم. لص... إن عشيقك لص... عاش لصاً طوال عمره... كان يسرق وهو طفل... لقد سرق ليقدم لك ذلك الخاتم الذي تضعينه في أصبعك، ولكي يقدم لك زهوراً... إنه لص محتال. حتى اسمه الحقيقي هو أرسين لوبين... تذكرى هذا الاسم يا كلاريس... فسيكون اسماً مشهوراً.

«إننى شاهدته وهو يمارس عمله... إنه بارع جداً... ستكونا زوجين رائعين... ذلك إذا لم أحول بينكما... سيكون ابنكما ظريفاً... ابن أرسين لوبين وحفيد البارون ديتيج.

وزاد غضبها وهي تنطق بهذه العبارة الأخيرة وقالت:

– هيا يا ليونار... عليك بها.

فصاح راوول وهو يغلى من الغضب هو الآخر.

– أيتها الشقية... الويل له ولك إذا لمستما شعرة واحدة من

شعرها... الويل لكما.

وبذل مجهوداً لم يحتمله جهاز بومانيان فوقع على الأرض.

ساد الصمت هنيهة. ولكن القيد كان متيناً فلم يرتخى، فعاد الهدوء إلى جوزفين، وأخرج ليونار مسدسه ووضع فوهته على صدغ كلاريس.

وقالت الكونتس:

– إذا أتى بأية محاولة فاقتلها.

لزم راوول الهدوء عندئذ ولم يتحرك، فقد كان لا يشك في أن ليونار لن يحجم عن تنفيذ ما أمر به، وخشى على حياة كلاريس، وقالت جوزفين:

– أرى أنك فهمت حقيقة موقفك وأنك ثبت إلى عقلك.

قال راوول: كلا. ولكننى أفكر.

– في أي شيء؟

– لقد وعدتها أنها ستخرج ساعة، وقلت لها إنه ليس هناك ما يخشى منه عليها، وأريد أن أبر بكلمتى.

– لقد سبق السيف العذل.

– كلا يا جوزفين، فأنت ستطلقين سراحها.

لم تحفل بقوله وتحولت إلى ليونار وقالت:

– هيا يا ليونار.

ولكن راوول صاح: توقف... أطلق سراحها... هل تسمعين يا جوزفين؟... أريد أن تطلقى سراحها.

كان يتكلم بلهجة الواثق من أمره، كما لو كان يعتقد أن أمره سيطاع، فبدأ الشك على وجه جوزفين وتـرددت. على أن ترددها سرعان ما تلاشى وتمتمت تقول:

– ولماذا أطلق سراحها... ألديك سبب معقول؟

– نعم... سبب سيرغمك على إحناء هامتك والنزول على أمرى.

فسألته وقد ازداد قتلها: وما هو؟ ماذا تريد؟

– أريد أن تخلى سبيل كلاريس وأن تدعيها تعود إلى بيتها سالمة.

فضحكت في استهزاء وقالت: أهذا كل ما تريد؟

– نعم.

– وماذا تقدم لى نظير ذلك؟

- سر اللغز

فارتجف وسألته: هل تعرفه.

- نعم

وهكذا تغير الموقف وانقلب في لحظة وجيزة، فلم تفكر الكونتس كاليو سترو في الانتقام، وتراقصت جواهر الرهبان أمام عينيها، وهذا ما أراده راوول. وأرهف بومنيان أذنيه. وقالت جوزفين:

- هل يكفى أن أعرف سر اللغز

أجاب راوول: كلا. بل يجب أن تعرفي المعنى المراد منه.

- وهل عرفت أنت المعنى؟

- نعم.

كانت جوزفين تعرف أن راوول ليس ممن يمزحون فقالت.

- اذكر لى هذا السر فأطلق سراح كلاريس.

- بل أطلقى سراحها أولاً فأتكلم، ولن أتكلم بالطبع وأنا مقيد هكذا. ولكن بعد أن يحل وثاقي.

- هل جننت؟... إننى أسيطر على الموقف.

– بل أنا المسيطر عليه الآن، فأنت لا تستطعين شيئاً من غيرى.

فهزت كتفيها وقالت: اقسم لى أنك ستتكلم. اقسم بقبر أمك.

فقال: أقسم بقبر أمى أننى بعد أن تخرج كلاريس من هنا بعشرين دقيقة سأخبرك بمكان الصخرة المخبوءة فيها كنوز الرهبان

ترددت جوزفين هنيهة، وأخيراً التفتت إلى ليونار وقالت:

– دعها يا ليونار... وفك قيوده.

نظر ليونار إليها في شيء من السخط كأنه لا يقرها على عملها هذا ولكنه ابتعد عن كلاريس... وفك قيود راوول على كره منه.

وحرك راوول ساقيه وذراعيه بضع لحظات حتى جرى الدم في عروقه، ثم اقترب من كلاريس وقال لها:

– إننى التمس معذرتك عن كل ما أصابك يا كلاريس. ولكن لن يقع لك شيء بعد ذلك فأنت في حمايتى، فاخرجى الآن، ولا تخشى على. سنلتقي في القريب العاجل مهما كانت الموانع والعراقيل.

وخرجت كلاريس، وأغلق الباب وراءها ثم وقف ينتظر.

ساد صمت عميق خلال عشرين دقيقة كان راوول في أثنائها يختلج قلبه سروراً وابتهاجاً لنجاة كلاريس. وأخيراً قالت جوزفين.

بلهجة الأمر:

- تكلم الآن.

ومع ذلك فقد انتظر دقيقة طويلة قبل أن يتكلم، ثم أخرج ورقة كتب فيها:

«إنسان لبيب سوف يجد هذه الصخرة.»

وتملكه الانفعال وتغيرت ملامحه فجأة فقالت جوزفين في لهفة:

- ما الخبر يا راوول؟

فرد عليها قائلاً. إن رهبان القرون الوسطى كانوا أغبياء مجانين، ولم يكن الذين بحثوا عن كنوزهم بأقل منهم غباء وجنوناً. فقد وضعوا كنوزهم في مخبأ عادى... عرضه للظهور في أي وقت.

وسكت هنيهة ثم استطرد: نعم... نعم، هو ذلك... إن كلمة السر موجودة في نفس الكلمات الخمس التي ذكرتها كلاريس والتي قالت إنها رأتها في قاع الصندوق. وهذه الكلمة مكونة من الحروف الأولى من الكلمات الخمس المحفورة... وهي «السها»، وإذا عرفت أن السها اسم نجم صغير من النجوم السبع المعروفة بالدب الأكبر، أدركت كل شيء يا جوزفين.

بدا على الكونتس أنها لم تدرك غرض راوول فقالت:

– ولكننى لا أفهم المعنى المراد من هذه الكلمة.

– حقاً. ستفهمين الآن. إن الأديرة السبعة المذكورة والتي كانت تجبى الضريبة لها وضع خاص. وقد رسمت هذه الأديرة على هذه الورقة فوجدت أن مكان كل منها فوق الأرض مماثل لمكان كل نجمة من نجوم الدب الأكبر.

وعند ذلك رأيت أن هناك علاقة بين نجمة السها وبين مكان الصخرة التي في جوفها الكنوز إننى ما كدت أرى ذلك حتى عرفت على الفور ما أقول لك الآن.

تمتمت تقول: إننى لا أفهم ما تقصد أن تقول!

– إن مواقع نجوم الدب الأكبر تنطبق تماما مع مواقع الأديرة السبعة، وحيث إننا عرفنا أن كلمة السها من النجوم هو نفس المكان الذي يشير إلى مكان الصخرة في الأرض وأعنى به دير جوميج.

فما كادت الكونتس تسمع ذلك وتعى ما يقول حتى ضربته على رأسه بمقبض عصاتها. وكان ذلك آخر شيء يتوقعه، رغم أنه كان يعرف أن كاليو سترو معتادة على مثل هذا العمل الخبيث. وانحنى إلى

النصف في مقعده ثم وقع على ركبتيه، وتمدد بطول جسده وهو يقول:

– آه... المجرمة! إنها حتى لم تحترم العبقرية. آه... أيتها الشقية! هل قد قلبك من الحجر. سحقاً لك يا جوزفين. كان في مقدورنا أن نقتسم الكنز معا، أما الآن فسأحتفظ به وحدى.

* * *

# 13_ خزانة الرهبان

كان مجرد إغماء بسيط كذلك الذي يصيب الملاكم عندما يتلقى لكمة في مكان حساس. ولكنه عندما أفاق رأى دون أية دهشة على كل حال، أنه في نفس موقف بومانيان، أسير مثله وظهره إلى الحائط.

ولم يشعر بأية دهشة كذلك عندما رأى جوزفين ممددة بين مقعدين وهي فريسة انهيار عصبي كذلك التي تتسبب بها أشد الانفعالات عنفاً، والضربة التي أصابت بها راوول هي التي تسببت في الأزمة. وكان شريكها ليونار يعنى بها ويقرب من أنفها بعض الأملاح.

ويبدو أنه استدعى أحد شركائه لأن راوول رأى الشاب الذي يعرفه باسم دومنيك والذي كان يحرس العربة أمام بيت بريجيت

روسلان.

قال دومنيك عندما دخل ورأى الأسبرين:

– يا للشيطان! أرى أنه قد وقعت مشاجرة! بومانيان وداندريزى... إن الزعيمة قوية وعنيفة، والنتيجة صدمة انفعالية.

قال ليونار: انتهى الأمر تقريباً.

– وماذا نفعل الآن؟

– نحملها إلى العربة ونمضى بها إلى الزورق.

وهما بأن يرفعاها ولكنها قالت في صوت خافت جداً متخيلة أن راوول لن يسمعها:

– كلا. سأسير وحدى. وستبقى أنت هنا يا ليونار، لكي تراقب راوول.

قال ليونار في غير كلفة: دعينى أسوى حسابي معه، فإنه سيصيبنا بكل شيء.

– إننى أحبه.

– ولكنه لا يحبك.

– بل سيعود إلى. ثم إننى لن أتخلى عنه، مهما يحدث.

– ماذا تقررين إذن؟

– لابد أن الزورق في كوديبيك الآن. سأستجم فيه حتى أول ساعات النهار فإننى بحاجة إلى الاستجمام.

– والكنز؟ لابد من بعض الناس لمعالجة صخرة بذلك الحجم.

– سأخطر الأب كوربو وولديه لكي يوافوننى غداً صباحاً في جومبيج، ثم أهتم بعد ذلك براوول، ما لم... ولكننى لا أطلب أكثر من ذلك في الوقت الحاضر، فإننى مرهقة.

– وبومانيان؟

– سنطلق سراحه بعد حصولى على الكنز.

– ألا تخشين أن تبلغ كلاريس عنا، وأن يحاصر رجال الشرطة الفنار؟

– ما أحمقك! أتظن أنها ستطلق رجال الشرطة وراء أبيها وراوول؟

ونهضت من مقعدها، ولكنها سرعان ما انهارت من جديد، وبذلت جهداً خارقاً حتى أفلحت في الوقوف. واقترب من راوول وهي تعتمد على دومنيك وهمست:

– إنه مغمى عليه. راقبه جيداً يا ليونار... والآخر أيضاً، فلو أن أحدهما هرب لانهار كل شيء.

ومضت في بطء. ورافقها ليونار حتى العربة، وعاد بعد قليل ومعه سلة بها بعض الطعام، ثم سمع الجميع وقع حوافر الجياد وهي تنطلق في الطريق.

وكان راوول يتحقق في تلك اللحظة من متانة قيوده وهو يقول لنفسه «إن الزعيمة ضعيفة في الواقع، فهي أولاً تكلمت عن نواياها بصوت خافت غير إننى سمعت كل ما قالت، وثانيا عهدت بمراقبتنا إلى رجل واحد، وهذا يدل على عيب طبيعى.

ومرت ساعات، وهبط الليل، وبدا كأن بومانيان قد نام فراح يعالج قيوده ولكن ليونار قال له: دع القيد وإلا حطمت رأسك، ثم أمسك بطرف قيده وربطه بطرف قيد بومانيان ولف بقية القيد حول مقعد ووضع فوقه السكين التي أعطتها له جوزفين ثم جلس يدخن غليونه، في حين راح راوول يناجى نفسه ويلمها لأنه لم يكن شديد الحرص مع جوزفين: «كان يجب أن أتوخى الحذر معها. إنها لن تتفاهم معي أبداً، ولكنها شديدة العزم شديدة الوضوح، ولا ضمير لها على الإطلاق.

إلا أن بها عيباً واحداً يبعدها عن الكمال وهو جهازها العصبي المختل. وهذا يسعدني لأنه سيتيح لي أن أصل قبلها إلى صخرة جوميبج.

ذلك لأنه لم يشك لحظة واحدة في استطاعته الهرب من ليونار. وتجمعت خيوط الظلام في الغرفة، فأشعل ليونار شمعة ودخن غليونه للمرة الثانية وشرب كأساً أخيرة من النبيذ، وراح يغفو وتميل رأسه ذات اليمين وذات الشمال. وكانت الساعة قد بلغت التاسعة مساء، وقال راوول: إذا تمكنت من الهرب في الساعة الحادية عشرة فسوف أكون في ليلبون في نحو منتصف الليل حيث أتناول العشاء، ثم أصل في الساعة الثالثة صباحاً إلى المكان المقدس، وما أن يبزغ الفجر حتى أكون قد ملأت جيوبى بكنوز الرهبان.

ولكنه كان لا يزال كما هو في الساعة العاشرة والنصف، وبدأ يشعر باليأس، عندما أحس بنسمة من الهواء تدخل من النافذة الجانبية وكان ليونار قد ورابها في شيء من الإهمال. والواقع أن أحد مصراعى النافذة بدأ يتحرك إلى الداخل، فنظر راوول إلى بومانيان. كان هو الآخر قد أحس بنفس النسمة ورأى النافذة تتحرك، وتساءل راوول: من؟ أيكون الفلاحين... أو نجدة غير متوقعة... صديق لبومانيان؟... أو

متشرد اعتاد أن يقضى الليل في الفنار.

وظهرت رأس في الظلام، وتسلق شخص النافذة بسهولة. وأدرك راوول على الفور أنها امرأة، وعرف على الفور كذلك أنها كلاريس.

غمره انفعال لا يوصف. إذن فقد أخطأت جوزفين بلسامو عندما افترضت أن كلاريس لا يمكن أن تتصرف. ولا ريب أن الفتاة أخذها القلق، واحتجزها الخوف من الأخطار التي تهدده فتغلبت على تعبها وخوفها وكمنت غير بعيد عن الفنار، وانتظرت هبوط الليل، وهي تحاول الآن المستحيل لكي تنقذ ذلك الذي غدر بها بكل قسوة.

تقدمت ثلاث خطوات. وتحرك ليونار. ولكنه كان يوليها ظهره لحسن الحظ فتوقفت، وإذ لم تصدر منه أية حركة من جديد تقدمت وأخذت السكين من فوق المقعد وقطعت طرفى القيدين وهي تحرص على أن لا يتحرك المقعد من مكانه. وشاء الحظ أن لا يستيقظ ليونار، ولو أنه استيقظ لقتلته على الفور. وانحنت فوق راوول وهي تتحسس بيديها باحثة عن قيوده، وخلصت قبضته، وقال:

- أعطنى السكين.

أطاعته، ولكن بومانيان كانت أسرع منه، فقد كان يعالج قيده منذ

وقت طويل وأفلح في تحرير يديه، فالتقط السكين، واغتاظ راوول فأمسك بذراعه، فإن بومانيان إذا تخلص من قيده قبله فإن كل أمله في حصوله على الكنز سيضيع، وكانت معركة عنيفة وصامتة، يستخدم كل منهما فيها قوته وهو يعلم أن أقل حركة ستوقظ ليونار حتماً.

وراحت كلاريس تنتفض من الرعب وهي جاثية على ركبتها، تحاول التوسل إلى الرجلين، وتحرص على أن لا تقع في نفس الوقت. ولكن جرح بومانيان، رغم عدم خطورته لم يسمح له باستمرار المقاومة فلم يلبث أن توقف.

في هذه اللحظة حرك ليونار رأسه وفتح عيناه ونظر إلى المنظر الذي أمامه: الرجلين المنحنيين والقريبين، أحدهما من الآخر وهما يتعاركان، وكلاريس ديتيج على ركبتها.

ودام ذلك بضع ثوان... بضع ثوان مخيفة لأنه لم يكن هناك شك في أن ليونار وهو يرى هذا المنظر لن يتردد في أن يصرعهما بمسدسه، ولكنه لم يره، فإن عينه التي حدجتهما لم تستطع أن تراهما. وانطبق الجفن دون أن يستيقظ الوعي.

وعندئذ قطع راوول قيد قدميه ووقف والخنجر في يده. كان حرا،

وهمس وكلاريس تنهض واقفة: امضى... انجى بنفسك.

قالت: كلا.

وأشارت له برأسها إلي بومانيان، كما لو أنها لا ترضى أن تتركه خلفها، معرضا لانتقام ليونار.

وأصر راوول، ولكنها لم تتزحزح من مكانها. ولم يسع راوول عندئذ إلا أن يقر بعجزه وناول السكين لغريمه وهو يهمس:

– إنه على حق. علينا أن نكون باردى الأعصاب. وتدبر أمرك. ولكل منا، منذ الآن، حظه ونصيبه.

وتبع كلاريس، فتسلق كل منهما، الواحد بعد الآخر النافذة، وإذ خرجا من الفنار أمسكت بيده وقادته حتى الجدار، حيث توجد ثغرة ومرت منها بمساعدته، ولكنه عندما تسلق الجدار بدوره لم ير أحدا فقال: كلاريس... أين أنت.

كانت الليلة مدلهمة لا نجوم فيها. وسمع خطوات خفيفة تجرى بين الأدغال، فولجها ولكنه اصطدم بالأغصان والأشواك قاطعة عليه الطريق فاضطر أن يعود وفكر: إنها تهرب منى. غامرت بكل شيء وأنا سجين لكي تنقذني. والآن وقد أصبحت حراً فهي لا تريد أن

ترانى، فإن خيانتى لها، وجوزفين بلسامو، والمغامرة الفظيعة، كل ذلك أفزعها.

ولكنه ما أن خرج من نطاق الفنار حتى انحدر شخص من الجدار الذي سبق أن تسلقه. هرب بومانيان بدوره، وعلى الفور دوت طلقات نارية في نفس الاتجاه وأسرع راوول فلجأ إلى مكان آخر، فقد كان ليونار منحنياً فوق الثغرة، وراح يطلق النار في الظلام.

* * *

وهكذا انطلق الغرماء الثلاثة في حوالي الساعة الحادية عشرة، في نفس الوقت، إلى صخرة جومييج، على بعد إحدى عشرة مرحلة، مضى كل منهم بوسائله الخاصة، وأصبح الأمر مرهوناً بذلك.

كان هناك بومانيان وليونار، وكل منهما له شركاؤه، وعلى رأس منظمات قوية، فإذا كان أصدقاء بومانيان ينتظرونه، وإذا استطاع ليونار أن ينضم إلى الكاليو سترو، فان الغنيمة ستكون من نصيب الأسرع. ولكن راوول كان أصغرهم وأكثرهم نشاطاً وحيوية ولو أنه لم يكن من الحماقة بأن ترك دراجته في ليلبون لكانت كل الفرص مواتية له.

ويجب الاعترف بأنه تخلى مؤقتاً عن تعقب كلاريس فإن البحث

عن الكنز كان شاغله الوحيد، فاجتاز العشرة كيلو مترات التي تفصله عن ليلبون في ساعة، وأيقظ خادم حانته، وتناول طعاماً سريعاً، وبعد أن أخذ في حقيبتين صغيرتين بضع خراطيش من الدنياميت، كان قد حصل عليها من قبل ذلك بأيام، ركب دراجته بعد أن لف على مقودها حقيبة من القماش لكي يضع الأحجار الكريمة فيها.

وحسب حسبته كما يلي:

– من ليلبون إلى جومييج ثماني مراحل ونصف سأكون هناك قبل طلوع النهار، وسأعثر على الصخرة وأفجرها بالدنياميت... ومن الممكن أن تفاجئني الكاليو سترو أو بومانيان في منتصف العملية... وفي هذه الحالة لابد من نقتسم.

وتجاوز كوديبيل، وسار على قدميه حتى التلة التي تؤدي إلى نهر السين. كان زورق جوزيفين موجوداً، ورأى نوراً منبعثاً من نافذة القمرة التي تشغلها المرأة الشابة فقال: لا ريب انها تستبدل ثيابها. وستأتي المركبة للبحث عنها، وربما يعجل ليونار العملية ولكن فات الوقت أيتها السيدة!

وانطلق بكل سرعة، ولكن فيما هو يهبط الساحل في موضع وعر

أحس بأن عجلة الدراجة اشتبكت في عقبة ولم يلبث أن اندفع في عنف فوق كومة من الحصى.

وظهر رجلان على الفور، وسلط أحدهما نور مصباح كهربائي على المنحدر الذي تكوم راوول خلفه. وقال:

– إنه هو... لا يمكن أن يكون أحداً غيره... قلت لكما: حبل ممدود ونمسك به.

كان جود فرى ديتيج هو الذي تكلم. وقال بنيتو على الفور:

– سنمسك به... ذلك إذا أراد... هذا الشقى.

وكان راوول قد اختفى كالحيوان الطريد في دغل من العوسج والأشواك، حيث تمزقت ثيابه، وأصبح بعيداً عن متناولهم. وراح الآخرون يسبون ويلعنون عبثاً لأنهم لم يعثروا عليه. وقال صوت ضعيف صادر من العربة، وكان صوت بومانيان:

– كفى بحثاً. المهم الآن هو تحطيم دراجته، فافعل يا جود فرى، ولنسرع فقد استراح الجواد بما يكفى.

– ولكن، أنت يا بومانيان... هل أنت في حالة تسمح...

– سواء سمحت أم لا فلابد من الوصول... ولكننى أفقد كل دمى

بهذا الجرح اللعين. إن الضمادة انفكت.

وسمعهم راوول يحطمون دراجته. ولم تلبث العربة أن انطلقت.

وأسرع راوول خلفها.

كان يغلى من فرط الغيظ. ما كان ليترك المعركة لأي سبب من الأسباب. لم يعد الأمر يتعلق بملايين وملايين، وبشيء يتيح لحياته معنى رائعاً. ولكن أصبح الأمر الآن أن يتعلق بكرامته هو بالذات، فقد حل اللغز العويص، ولابد له الآن أن يكون أول من يصل إلى الهدف، فإنه إذا لم يصل وإذا لم يحصل على نصيبه ففي ذلك إهانة له لا تحتمل حتى أواخر أيامه.

ولهذا، ودون أن يهتم بتعبه، راح يجرى على بعد مائة متر من العربة، تشجعه فكرة أن كل المعضلة لم تحل بعد وأن أعداءه سيضطرون مثله إلى البحث عن مكان الصخرة، وأنه سوف يتفوق عليهم في هذه الناحية.

على أن الحظ ساعده، فعندما اقترب من جومييج، التقى بخورى القرية، وكان عائدا بحصبة طفل. وسار راوول معه، وفي الطريق سأله عن حانة ثم تظاهر بأنه من هواة الآثار واستعلم منه عن صخرة سمع عنها ويقال إنها صخرة الملكة... أو شيء من هذا القبيل، وقال الخورى:

– آه. يبدو لى أنك تتكلم عن الصخرة التي نشير إليها هنا باسم صخرة أجنس سوريل؟

– وهل هي في جومييج؟

– تماماً. على بعد مسافة صغيرة من هنا. ولكنها لم تعد أثراً تاريخياً، فهنا أصبحت عبارة عن صخور صغيرة منبثقة من الأرض، وأعلا صخرة فيها تشرف على نهر السين وتعلو بنحو متر أو مترين.

– أظنها في أرض عامة إذا لم أخطئ.

– كانت كذلك منذ بضع سنوات. ولكن المجلس البلدي باعها لأحد رعاياه وهو السيد سيمون تويلار، وقد أراد أن يوسع أملاكه.

ترك راوول الخورى وهو لا يتمالك نفسه من فرط الفرح، فقد تزود بمعلومات دقيقة بحيث تجنب بلدة جومييج وسلك شبكة من الطرق المتعرجة تؤدى إلى مكان الصخرة، وبهذه الطريقة يسبق أعداءه بمدة طويلة.

والواقع أنه قبيل الساعة الثالثة كان يجتاز طريقاً أدى به إلى أملاك سيمون تويلار، ورأى على نور بضعة أعواد من الثقاب مزرعة أسرع باجتيازها وأفضت به إلى سد خيل إليه أنه حديث البناء يمتد بمحاذاة

النهر. وبلغ نهايته اليمنى، ولم يشأ أن يستنفذ ما معه من ثقاب فلم يعد يرى شيئاً.

ومع ذلك فقد ظهرت بقعة بيضاء في الأفق راحت تشق كبد السماء. فانتظر والسرور والابتسام يفيضان به، فقد أصبحت الصخرة المطلوبة على بعد خطوات. طوال سنوات، وربما في مثل هذه الساعة بالذات، أقبل رهبان إلى هذا المكان، خلسة لكي يدفنوا فيه ثرواتهم، وهو راوول داندريزى سيرث ألف ألف راهب كدوا فيما سبق وبذروا في كل أنحاء فرنسا وحصدوا دون توقف. ويا لها من معجزة، أن يحقق في سنه هذه مثل هذا الحلم، وأن يكون الند لأقوى الأقوياء، وأن يكون من بين الأسياد المهيمنين.

وسار بمحاذاة السد، وبدأ يتبين حدود ولون الأشياء... لحظة مهيبة، راح قلبه يدق بشدة، وفجأة أبصر على بعد ثلاثين خطوة منه الأكمة المتاخمة للمزرعة والتي تظهر منها، ومن بين الأعشاب، بعض الصخور. وتمتم وهو في أشد حالات الانفعال:

– إنه هنا... هنا... إننى بلغت الهدف.

وفي وثبتين اجتاز الخطوات العشر التي تفصله عن الأكمة.

أفلتت من بين شفتيه صيحة، وطالعت عينيه الحقيقة البشعة، فإن الجزء الأوسط من الصخرة كان مبقورا. كانت الصخرة محطمة، وقد تناثر حولها الحصى والعشب المحترق وكان الدخان لا يزال يتصاعد منه. ولم تعد هناك أية ذرة من ذهب أو فضة.

فقد سبقه العدو.

ومرت به أكثر من عشرين دقيقة وهو ينظر إلى الحقيقة المرة، حيث تلاشت أحلامه في السيادة والسيطرة. وكان مستغرقاً إلى حد أنه لم يسمع صوت عربة تتوقف في الطريق، وأن لا يشعر بالرجال الثلاثة الذين هبطوا منها، إلا عندما اقترب أحدهم من الصخرة وأطلق صيحة يأس.

كان بومانيان ومعه صديقاه ديتيج وبنيتو، يساندانه.

وإذا كانت خيبة أمل بومانيان شديدة فإن عناء الرجل الذي قامر بكل حياته على هذا الكنز الغامض كان أشد، فقد اصفر وجهه وزاغت عيناه وتلوثت ضمادة جرحه بالدم، وراح ينظر في غباء إلى الأرض المدمرة والصخرة المبقورة كما لو أنه ينظر إلى أشد المناظر بشاعة وفظاعة.

كان يبدو كما لو أن الدنيا انهارت أمامه، وأنه يتأمل هاوية مليئة بالهول والرعب. وتقدم راوول منه وقال:

- إنها هي...

لم ينطق بومانيان. وهل هناك شك في ذلك؟ واعتدل في وقفته ورد البصر حوله بعينين محزونتين ثم، وفجأة رسم على صدره علامة الصليب ثم طعن نفسه بالسكين... تلك السكين التي كانت ملكا لجوزفين بلسامو.

كانت الحركة مباغتة وغير متوقعة، بحيث لم يستطيع أحد أن يتدخل، وقبل أن يدرك صديقاه وراوول ما حدث، انهار بومانيان في الحفرة، بين بقايا المكان الذي كان خزنة الرهبان. وأسرع صديقاه إليه. كان لايزال يتنفس. وتمتم: قسيس... قسيس.

أسرع بنيتو بالابتعاد، والتقى ببعض الفلاحين فسألهم وركب العربة. وجثا ديتيج بجوار الحفرة وراح يصلى، ويضرب بيديه والذعر يحفر وجهه. وانحنى راوول فوق بومانيان وقال له:

- أقسم لك أننى سأجدها، وأسترد الكنز منها.

كانت الكراهية والحب ثابتان في قلب المحتضر، ومثل تلك الكلمات

فقط يمكن أن تطيل حياته بضع دقائق، ففي ساعة الاحتضار، في انهيار أحلامه، كان يتعلق في يأس بكل ما يعنى الثأر والانتقام.

بحثت عيناه عن راوول، فانحنى فوقه أكثر وسمعه يدمدم:

– كلاريس... كلاريس ديتيج... يجب أن تتزوجها... اسمع... كلاريس ليست ابنة البارون... إنه اعترف لى بذلك... إنها ابنة امرأة أخرى كان قد تزوجها.

قال راوول في صوت هادئ رزين: أقسم لك أننى سأتزوجها.

نادى بومانيان قائلاً: جود فرى..

كان البارون لا يزال يصلى، فضربه راوول على كتفه، وأحناه فوق بومانيان، وتمتم هذا الأخير:

– ستتزوج كلاريس داندريزى... إننى أريد ذلك.

قال البارون وهو عاجز عن المقاومة: نعم... نعم...

اقسم لى.

– أقسم لك.

– ستعطيه كل أموالك لكي ينتقم لنا... كل الأموال التي سرقتها... هل تقسم؟

– أقسم.

– إنه يعرف كل جرائمك... وعنده الأدلة... إذا لم تطع فسوف يبلغ عنك.

– سأطيع.

– عليك اللعنة إذا كنت تكذب.

وراح صوت بومانيان يخرج كالأنفاس المجموعة، وشيئاً فشيئاً، لم تعد الكلمات واضحة. وانحنى راوول فوقه أكثر لكي يفهمها.

– راوول... سوف تطاردها... يجب أن تنتزع منها كل الجواهر... إنها الشيطان... اسمع... إنني اكتشفت أن لها زروقا في الهافر... اسمه «ليفير لويزان»... اسمع...

لم تعد لديه القوة لكي يتكلم. ومع ذلك فقد سمعه راوول يقول أيضاً:

امض... حالاً... ابحث عنها... ابتداء من اليوم.

وانطبقت العينان، وبدأ الاحتضار. ولم يكف جود فرى ديتيج عن ضرب صدره بيديه وهو جاث في الحفرة.

* * *

وفي المساء نشرت إحدى صحف باريس في طبعتها الأخيرة:

«انتحر هذا الصباح في بلدة جومييج مسيو بومانيان، المحامي المعروف في الدوائر المناهضة للملكية، والذي سبق أن أعلن عن موته خطأ في أسبانيا. وأسباب ذهابه إلى تلك البلدة وانتحاره غير معروفة».

وفي اليوم التالي نشرت الصحف بضعة أنباء نوجزها في المقال التالي بكل أمانة.

«شاهد الأمير لافورنيف، أثناء وجوده في الهافر لتجربة يخت النزهة الذي اشتراه حديثاً مأساة فظيعة، فقد كان في طريق عودته إلى الساحل الفرنسي عندما شب حريق وسمع انفجارا على بعد نصف ميل تقريباً. ونشير في هذه المناسبة إلى أن ذلك الانفجار سمع في أماكن عديدة من الساحل.

«وعلى الفور، أدار الأمير لافورنيف يخته إلى مكان الحادث حيث اكتشف بعض الحطام التي تطفو على سطح البحر، وفوق إحداها أحد البحارة تمكن من التقاطه، ولكنهم ما كادوا يستجوبونه ويعرفون منه أن الزورق اسمه «ليفير لويزان» وأنه ملك للكونتس دى كاليو ستروحتى ألقى بنفسه في الماء من جديد وهو يصيح: إنها هي... إنها

هي...

«والواقع أنه على ضوء المصابيح شوهد حطام آخر تتشبث به امرأة تطفو رأسها على سطح البحر.

«وأفلح الرجل في اللحاق بها ورفعها، ولكنها تشبثت به في يأس بحيث شلت حركته، واختفيا معا، ولم تجد كل الأبحاث.

«وعندما عاد الأمير لافورنيف إلى الهافر أدلى بشهادته وقد أيدها البحارة الأربعة الذين يعملون على اليخت.»

وأردفت الجريدة.

«وتحمل الأنباء الأخيرة على الاعتقاد بأن الكونتس دى كاليو سترو كانت أفاقة، معروفة باسم مدام بللجرينى، وتعرف أيضاً في بعض الأوساط باسم بلسامو، وقد طاردها البوليس وأوشك أن يعتقلها مرتين أو ثلاث مرات في مقاطعة كو، حيث كانت تعمل في الأيام الأخيرة. ولا ريب أنها أرادت أن تبحر إلى الخارج، وهلكت هي وكل بحارتها في حادث الانفجار.

«ونذكر أيضاً، مع كل التحفظات بأنه يشاع أن هناك ارتباطاً بين بعض مغامرات الكونتس دى كاليو سترو ومأساة جومبيج الغامضة.

ويتحدثون عن كنز مدفون سرقته وعن مؤمرات ومستندات قديمة. ولكننا ندخل هنا في مجال الأسطورة، ولهذا نتوقف ونترك للعدالة مهمة إماطة اللثام عن هذه القضية.»

* * *

بعد ظهر هذا اليوم، دخل راوول مكتب البارون ديتيج في قصره. وكان يتناول الطعام مع ابن عمه أوسكار دى بنيتو. وقال دون أية مقدمات:

– جئت أطلب يد الآنسة ديتيج، وأعتقد..

ولم يكن مظهره لائقاً أبداً وهو يطلب الزواج، فقد كان عارى الرأس، وفوق ظهره سترة بحرية ويرتدى بنطلوناً قصيراً، وفي قدميه خف عادي.

ولكن جود فرى ديتيج لم يهتم بمظهره، ولا بطلبه، فقد كان غائر العينين وبوجهه تجاعيد تدل على مبلغ ألمه. وبسط راوول بعض الجرائد وهو يتأوه قائلاً:

– هل قرأت؟... الكاليو سترو؟...

أجاب راوول: نعم... إننى أعرف.

كان يكره هذا الرجل. ولم يسعه إلا أن يقول:

– وهذا خير لك، أليس كذلك؟ فإن موت جوزفين بلسامو النهائي يخلصك من حمل ثقيل.

تمتم البارون: ولكن النتيجة... والعواقب...

– أية عواقب؟

– العدالة. ستحاول أن يجلو الحقيقة، فمن الآن، وبمناسبة انتحار بومانيان يتحدثون عن الكاليو سترو... وإذا ربطت العدالة جميع خيوط القضية فسوف تمضي بعيداً... حتى النهاية.

داعبه راوول قائلاً: نعم... حتى الأرملة روسلان... وحتى تقتل جوبير... أي حتى تصل إليك وإلى ابن عمك بنيتو...

ارتجف الرجلان، فهدأهما قائلاً: اطمئنا إن العدالة لن تحاول أن تجلو كل هذه المسائل البغيضة لسبب وجيه وهو أنها ستحاول على العكس أن تتكمتها، فقد كان بومانيان يتمتع بحماية بعض الأقوياء الذين لا يحبون الفضيحة ولا كشف أمورهم. ستحفظ القضية. إن الذي يزعجني أكثر إنما هو شيء آخر.

قال البارون: وما هو؟

– هو انتقام جوزفين بلسامو.

– ولكن مادامت قد ماتت.

– حتى إذا كانت قد ماتت فلابد من توخى الحذر... يوجد في آخر البستان كوخ صغير كان معداً للحارس، وهو الآن مهجور... سأقيم فيه... حتى الزواج... أخطر كلاريس بوجودي وقل لها أن لا تستقبل أي أحد، ولا حتى أنا... ومع ذلك فيجب أن تقبل هذه الهدية بمناسبة الزواج، وأرجوك أن تقدمها لها نيابة عني.

وبسط راوول للبارون المشدوه ياقوته ضخمة لا مثيل لها في صفائها ونقائها.

* * *

# 14 ـ السفاكة الجهنمية

همست جوزفين بلسامو ألقوا المرساة، وأحضروا القارب هنا.

كانت تنتشر فوق البحر ضبابة كثيفة تزيد كثافة الظلام بحيث لم يكن يمكن تمييز أضواء ايتريا

إلى حد أن أنوار الفنار لم يكن لها أي تأثير وراح يخت الأمير لافورنيف يتقدم في بطء كما لو أنه يتحسس طريقه، وقال ليونار:

– ما الذي يثبت لك أننا أمام الشاطئ.

أجابت قائلاً: هذا جنون. لقد مر على نجاحنا خمسة عشر يوماً، وأعترف أن ذلك بفضلك، وانتصرنا في آخر مغامرة، ومجموعة الجواهر كلها قد وضعناها في حقيبة موجودة في إحدى الخزائن بلندن، واختفى كل خطر، وأصبحت الكاليو سترو وبللجرينى وبلسامو والمركيزة دى بلونت في قاع البحر نتيجة لغرق الـزورق، وشهد

عشرون شاهداً الانفجار وهم وقوف على الشاطئ، وأصبحت أنت سيدة الموقف وانتصرت على كل أعدائك، وتأتين الآن إلى نفس المكان الذي أصابك بسوء الحظ لكي تواجهي العدو الوحيد الحقيقي، وأرى عدو يا جوزين... عدو عبقري لولاه لما اكتشفنا الكنز أبداً. اعترفي معي أن هذا جنون.

تمتمت: ولكننى أحبه ولا أستطيع البعد عنه. إننى أحب، وهذه أول مرة. أما المرات السابقة فلم يكن لها أي معنى، في حين أن راوول...

عرفت بهجة حياتي الحقيقية عن طريقه هو، ولكننى عرفت أيضاً شقائي العظيم... لم أعرف السعادة قبله... ولم اكن أعرف العذاب والآلام كذلك. ثم. ثم، انتهت السعادة... وحين يخطر لي أنه سيتزوج وأن زواجهما سيثمر طفلاً... إن هذا فوق طاقتي... كل شيء إلا هذا... أفضل أن أخاطر بكل شيء يا ليونار... أوثر أن أموت.

قال في صوت خافت: مسكينة أنت يا جوزين.

ولزما الصمت مدة طويلة ثم قالت: ولكننى لا أتعرض لأي خطر يا ليونار... ولا حتى للفشل، فسوف أختطفه، وقد أعددت كل شيء.

- وكيف ذلك؟

– بمساعدة دومنيك، فقد التحق كسائس لدى البارون ديتيج منذ مدة، حتى قبل أن يظهر راوول.

– ولكن راوول يعرفه.

– ربما رآه مرة أو مرتين، ولكنك تعرف مدى براعة دومنيك في التنكر، ومن المستحيل أن يعرفه راوول بين كل الخدم، في القصر وفي الإسطبلات. وقد أطلعني دومنيك على كل ما أريد، وأعرف السلة التي ينام فيها راوول، وأعرف متى يصحو، كما أعرف أنه لم ير كلاريس بعد، وأنهم يقومون بالإجراءات الخاصة بالزواج. وقد سمع دومنيك بضع عبارات بين راوول وبين البارون، عندما مضى للقائه في القصر. ولم يرق الشك إلى أي أحد منهم في موتى، ولكن راوول طلب من البارون أن يكون على حذر، حتى بعد موتى. وهو يراقب ويقوم بالحراسة حول القصر، ويسأل الفلاحين.

– وهل سيتركك دومنيك تذهبين؟

– نعم. ولكن لساعة فقط... نضرب ضربتنا بجرأة وسرعة أثناء الليل ثم نبادر بالهرب على الفور... والليلة بالذات، فيما بين العاشرة والحادية عشرة. إن راوول يقيم في كوخ قديم كان معداً لإقامة

الحارس، فما أن ينام حتى نلفه في المرتبة والغطاء فهما عريضان، ونأتي به إلى اليخت ثم نرحل في نفس الليلة.

– ودومنيك.

– سيرحل معنا.

– ألم تصدرى إليه أمراً خاصاً بخصوص كلاريس؟... إنك تكرهينها، وأعتقد أنك كلفت دومنيك بمهمة خاصة.

ترددت قليلا ثم قالت: ليس هذا من شأنك.

– ومع ذلك...

وانزلق القارب بجوار اليخت، وقالت جوزين بلهجة المزاح:

– اسمع يا ليونار. منذ أن جعلتك الأمير لانورنيف، ومنحتك يختاً جميلاً أصبحت متطفلاً، فدعنا لا نخرج من اتفاقنا. أنا أصدر الأوامر، وعليك أنت أن تطيع. ولا حق لك أبداً إلا في بعض الإيضاحات، وقد زودتك بها، فافعل كما لو أنها تكفيك.

قال: إنها تكفيني، واعترف أنك دبرت أمورك بكل حذق وذكاء.

– هذا أفضل. فلنهبط الآن.

وهبطت هي الأولى في القارب، وتبعها ليونار، وأربعة من

شركائهم.

وقام اثنان منهم بالتجديف نحو الشاطئ. وسألها ليونار:

– هل أنت واثقة أننا لن نلتقي برجال الجمارك؟

– كل الثقة. فإن برقية دومنيك قاطعة. وسنلتقي به بالقرب من كوخ راوول.

وبلغوا الشاطئ وتقدموا نحو القصر في سكون وهدوء تامين بفضل الظلام والضباب. وعندما اقتربوا من الكوخ قطعت الكاليو سترو على رجالها الطريق قائلة: انتظروني. وسألها برنار هل أصحبك؟

– كلا. سأستطلع الكوخ ثم أعود لأبحث عنك وندخل معاً.

وتقدمت وحدها في سكون وحذر، وهي تحاول أن لا يصدر منها أى صوت، وتبينت الكوخ خلال الظلام، ولمست بيدها مصراعى النافذة، ولم تكن مكملة الإغلاق إذ تلاعب دومنيك بها. ووارب جوزفين المصراعين بحيث أحدثت فتحة تسلل منها قليل من النور.

ألصقت جبهتها ورأت راوول بالداخل راقداً يقرأ كتاباً على ضوء مصباح بجوار الفراش. ومرت فترة ثم أطبق الكتاب ونام.

وإذ رأت جوزفين ما أرادت عادت إلى شركائها. وكانت قد

أصدرت إليهم تعليماتها ولكنها كررتها من جديد ثم قالت.

– لا أريد عنفاً لا طائل منه يا ليونار. وحيث إنه ليس بين يديه ما يدافع به عن نفسه فلن تحتاجوا إلى أسلحة، فأنتم خمسة، وهذا يكفي.

قال ليونار: وإذا قاوم؟

– عليك أن تتصرف بحيث لا يستطيع المقاومة.

ودخل الرجال الخمسة، وتم كل شيء بسرعة. ولم يستيقظ النائم إلا بعد أن أصبحت كل مقاومة غير ممكنة، فقد غطوه بالأغطية السميكة وجمعوا طرفى المرتبة حوله وربطوها مسرعين. ولم يتطلب الأمر أكثر من خمس دقائق. ولم تصدر ولو صيحة واحدة، ولم يتبعثر أي شيء في الغرفة.

وهكذا انتصرت الكاليو سترو ومرة أخرى، وسألها ليونار:

– ماذا يجب أن نفعل؟

– احملوه إلى المركب.

واقترب ليونار منها وسألها قائلاً: ألا تأتين معنا؟

– كلا، فإننى انتظر دومنيك.

– بسبب الفتاة... أليس كذلك؟

- نعم.

وحمل الرجال راوول وخرجوا من النافذة وأغلقتها خلفهم ثم انتظرت.

ودقت ساعة الكنيسة الحادية عشرة، فأرهفت السمع، وسمعت صفيراً خافتا ففتحت باب الكوخ وردت على الصفير بصفير آخر خافت، فأسرع دومنيك إليها، ودخلا الغرفة معا، وقال قبل أن تسأله: قضى الأمر.

قالت في إعياء وضعف بحيث اضطرت إلى الجلوس: هل تألمت؟

- كلا. كانت نائمة.

- وهل تأكدت من أنها ماتت.

- طبعاً، فقد طعنتها ثلاث مرات. ثم واتتنى الشجاعة فبقيت لكي أتأكد... ولكن لم يكن هناك داع لذلك، فقد سكتت أنفاسها وبردت يداها.

- وإذا لحظ أحد ذلك؟

- محال. فلا يدخل أحد غرفتها قبل الصباح... وسيتحققون من الأمر عندئذ فقط.

لم يجرؤ أي منهما على النظر إلى الآخر. وبسط دومنيك يده، فأخرجت من صدرها عشر ورقات مالية ناولتها له أخذها وهو يقول:

– شكراً لك. ولكن لو طلبت منى أن أقوم بذلك مرة أخرى فسوف أرفض، ماذا يجب أن أفعل الآن؟

– انصرف. سوف تلحق بالآخرين إذا عدوت.

– حسناً... حسناً... ولكن أنت؟

– سأرى إن كانت هناك أوراق فيها خطر علينا ثم أنضم إليكم.

وما أن خرج حتى راحت تفتش أدراج مكتب صغير. وإذ لم تجد شيئاً فتشت جيوب راوول، وكان قد طواها على مقعد بجوار الفراش قبل أن ينام.

ولفتت المحفظة اهتمامها. كان بها بعض النقود وبطاقات زيارة باسم راوول داندريزى وصورة كلاريس.

تأملت الصورة طويلاً، بإحساس لم يكن فيه حقد ولا كراهية وإنما قسوة لا ترحم. ثم بقيت جامدة وقد استغرقها الأفكار. وكان أمامها مرآة فنظرت إليها، وقد وقفت بضع دقائق وهي كذلك ثم عادت إلى استغراقها. ودقت الساعة الربع بعد الحادية عشرة ولكنها لم تتحرك.

وكان يخيل أنها نائمة، وبدا كأنها تعيش في حلم، وأحست كأنها ترى صورة محيرة حاولت عبثاً أن تعتاد عليها. ظهرت تلك الصورة من خلف الستائر، وراء الفراش. وبدا كأن يدا تخرج من خلفها.

وامتدت اليد أكثر فأكثر، وتبعها ذراع، وبرز فوق تلك الذراع رأس. وكانت جوزفين بلسامو معتادة على الجلسات الروحانية، حيث ترسم الظلال أشباحاً ويعطى الوهم اسما لذلك الذي يصوره لها خيالها خارجا من الظلمات. وكان ذلك الشبح يرتدى ثياباً بيضاء، ولم تدر إذا كان توتر فمه يعبر عن ابتسامة رقيقة أم تكشيرة غاضبة وتمتمت:

– راوول... راوول... ماذا تريد منى؟

وأبعد الشبح إحدى الستائر وتقدم إلى الفراش:

خفضت جوزفين جنبيها وهي تتأوه ثم أسرعت وفتحتها. كان الوهم يقترب وهو يصدر حركات مسموعة تقطع صمت الكوخ. وأرادت أن تهرب، ولكنها لم تلبث أن أحست على كتفها بيد لم تكن يد شبح طبعاً. وسمعت صوتا مرحا يقول:

– ما رأيك الآن أيتها العزيزة جوزفين؟... إذا كنت بحاجة إلى نصيحة فاطلبي من الأمير لافورنيف أن يقدم لك رحلة صغيرة

للاستجمام، فأنت بحاجة إلى قليل من الراحة أيتها العزيزة جوزفين. ولكن كيف هذا... هل تحسبيننى شبحاً، فرغم أننى في منامة النوم فأنا لست غريباً عنك.

وبينما كان يرتدى بدلته ويربط رباط عنقه راحت تكرر مشدوهة:

أنت... أنت...

جلس بجوارها وقال: نعم. أنا. لا تلومي الأمير لافورنيف، ولا تظني أنه تركني أهرب ثانية... كلا، كلا. إن ما حملوه وخرجوا به إنما هو مرتبة بداخلها تمثال بالحجم الطبيعي... مانيكان... أما أنا فلم أغادر مكاني وراء الستائر منذ أن تركت مكانك خلف النافذة.

بقيت جوزفين بلسامو جامدة مكانها، عاجزة عن الإتيان بأية حركة، وكما لو أنها أوسعت ضرباً، في حين قال راوول:

– عجباً. أنت لست في حالة طبيعية. هل تريدين كأساً من النبيذ لكي ينعشك. أعترف لك على كل حال يا جوزفين أننى أدرك انهيارك، ولا أريد أن أكون مكانك، فكل شركائك قد انصرفوا، وليس هناك أية نجدة ممكنة قبل ساعة، وأنت أمامي في غرفة مغلقة، ولك الحق في أن ترى السواد في كل شيء. إنك سيئة الحظ حقاً.

وانحنى والتقط صورة كلاريس وقال: ما أجمل خطيبتى، أليس كذلك؟ رأيت بسرور أنك كنت تتأملينها بإعجاب منذ لحظات. هل تعرفين أننا سنتزوج بعد أيام؟

تمتمت الكاليو سترو: إنها ماتت... ماتت.

قال ساخراً: ماذا تريدين؟... هذا يحدث كل يوم. وليس هذا بسبب لكي أغير خططي سواء ماتت أو على قيد الحياة فسأتزوجها.

سنتدبر أمرنا كيفما نستطيع. إنك دبرت أمورك جيداً أنت الأخرى.

قالت جوزفين وقد بدأت تلك السخرية تثير قلقها: ماذا تعنى؟

– نعم. دبرت أمورك جيداً. فقد أغرقك ليونار أول مرة، والمرة الثانية غرقت مع زورقك. ومع ذلك هذا فإن ذلك لم يمنع وجودك هنا. وفي نفس الوقت، ليس بسبب أن كلاريس تلقت ثلاث طعنات من سكين في قلبها أن لا أتزوجها. أولاً، هل أنت واثقة مما تقولين؟

– إن رجلاً من رجالى هو الذي طعنها.

– أو على الأقل زعم لك أنه طعنها.

نظرت إليه متسائلة وقالت: ولماذا يكذب على؟

– عجباً! لكي يحصل على العشرة آلاف فرنك التي وعدته بها

– إن دومنيك لا يمكن أن يخوننى، لن يخوننى حتى من أجل مائة ألف فرنك، ثم إنه يعرف جيداً أننى سوف أعثر عليه، وهو ينتظرني مع الآخرين.

– هل أنت واثقة أنه ينتظرك يا جوزين؟

ارتجفت. خيل إليها أنها تتخبط في دائرة تزداد ضيقاً حولها من لحظة لأخرى. وهز راوول رأسه وقال:

– من الغريب أن كل منا قد أخطأ نحو الآخر. فهل أنت من السذاجة أيتها العزيزة جوزفين لكى أصدق لحظة واحدة الانفجار الذي أصاب الزورق. أكنت تعتقدين أن شاباً له مثل عبقريتي وذكائي لن يدرك حقيقة ما حدث؟ إن ذلك الانفجار جاء مناسباً لك في الواقع، فإن يديك متعلقتان بالجرائم وملوثتان بالدم، والبوليس يسعى وراءك، وعندئذ تغرقين الزورق وتغرقين معه كل جرائم الماضي، والكنز المسروق وغيره من ثروات. كل ذلك يغرق، ويعتقد البوليس عندئذ أنك لقيت حتفك، وتغيرين اسمك وتبدأين حياة جديدة وتقتلين وتعذبين وتلوث يدك في الدم من جديد.

فليعتقد البوليس ما يشاء. أما أنا فما أن قرأت نبأ الانفجار حتى

قلت لنفسي: افتح عينيك جيداً، وأتيت هنا.

واستطرد يقول بعد صمت قصير: كنت أتوقع قدومك يا جوزفين. وكان يجب أن تدبري أمرك مع بعض شركائك. وكان حتمياً أن يأتي يخت الأمير لافورنيف هنا هذا المساء، ولهذا اتخذت حيطتي. وكان أول ما عنيت به هو أن أنظر حولى لكي أرى إن لم يكن هناك وجه مألوف... شريك لك... وهذا أسهل شيء.

«وعلى الفور عرفت السيد دومنيك، لأنني، كما لا تعرفين، سبق أن رأيته بجوار عربتك أمام بيت بريجيت روسلان... ودومنيك خادم مخلص، ولكن خوفه من الشرطة ومن علقة ساخنة منى أنا بالعصا روضاه إلى حد أن إخلاصه تحول إلى. وأثبت ذلك بأن أرسل إليك تقارير كاذبة وساق قدميك بالاتفاق معي إلى الفخ الذي نصبته لك. وهذا مكسب له: عشرة آلاف فرنك من جيبك لن تريها أبداً لأن خادمك المخلص عاد إلى القصر، تحت حمايتي.

«هذا هو موقف كل منا الآن أيتها العزيزة جوزفين. كان يمكنني بالطبع أن أوفر عليك هذه المهزلة الصغيرة، وأن أستقبلك هنا مباشرة لمجرد سروري بأن أشد على يدك. ولكنني أردت أن أرى أيضاً كيف

تديرين العملية، وبقيت في الخف، وأردت أن أرى أيضاً كيف ستقابلين نبأ مقتل كلاريس ديتيج المزعوم.

ارتدت جوزين إلى الخلف، لم يعد راوول يمزح بعد، فقد انحنى فوقها وراح يقول في صوت مكبوت:

– إن كل ما أحسست به أنت شيء من الانفعال. فقد حسبت أن تلك الفتاة ماتت... ماتت بأمر منك، ولم يكن لذلك أي تأثير عليك. إن موت الآخرين لا يهمك... في العشرين من العمر، أمامها حياة بكل الحب والسعادة، وتأتين أنت فتنتزعين كل ذلك كما لو أنك تكسرين جوزة صغيرة بدون أي وازع من ضمير. وأتذكر الآن أن بومانيان كان يدعوك بالسفاكة الجهنمية. وقد أثارنى وصفه هذا في البداية، ولكن اتضح أنه وصف صادق، وأن فيك شيئاً من جهنم نفسها. لم أعد أفكر فيك من غير أن أشعر بالفزع. ولكن أنت نفسك يا جوزفين. ألا تفزعين في بعض الأحيان؟

تمتمت في يأس بالغ: نعم، نعم... ولكننى لا أريد أن أتحدث عن ذلك... لا أريد أن أعرف... اسكت... اسكت.

قال: بل يجب أن تعرفي على العكس. إذا كنت تفزعين من أعمالك

فلماذا تقدمين عليها؟

قالت في إعياء شديد: لا أستطيع أن أفعل غير ذلك. علموني أن أفعل الشر كما يفعل غيري الخير. وأنا أفعل الشر كما لو أنه شيء لابد منه.

- ومن الذي علمك؟

سمع الرد في شيء من الغموض: أمي وقال: أمك... الجاسوسة؟ تلك التي دبرت كل تلك القصة التي تدور حول كاليو سترو؟

- أجل، ولكن لا تتهمها، فقد كانت تحبني كثيراً. وكل ما هنالك أنها لم تفلح في حياتها. أصبحت فقيرة وتعيسة وأرادت أن أفلح... وأن أكون غنية.

- ولكنك كنت جميلة والجمال بالنسبة للمرأة أكبر ثروة... كان الجمال يكفي.

- كانت أمي جميلة هي الأخرى، ومع ذلك فإن جمالها لم يفدها فى شيء.

- هل كنت تشبيهينها؟

- شبه بحيث لا يفرق بيننا أي أحد، وهذا هو سبب هلاكي.

أرادت أن أستأنف ما تدعوه فكرتها الخالدة... ميراث كاليو سترو.

– أكان معها مستندات؟

– قصاصة من الورق... عليها رباعية اللغز، وقد وجدتها إحدى صديقاتها في أحد الكتب، وكان يبدو أنها بخط كاليو سترو... وقد أثملها ذلك، كما أثملها نجاحها بجوار الإمبراطورة أوجينى. واضطررت أنا أن أستمر عندئذ. أقنعتنى بذلك وأنا طفلة، وربتني وأنشأتني على هذه الفكرة.

كانت تلك حرفتى التي أرتزق منها، وكان ذلك مصيري وقدري. كنت ابنة كاليو سترو. استأنفت أنا حياتها، وحياته هو. حياة براقة كتلك التي عاشها في الروايات... حياة أفاقة تتمتع بكل المواهب وتسيطر على العالم... ليس لها ضمير... كان يجب أن أنتقم لها من كل ما عانت منه... وعندما ماتت قالت لي «انتقمي لي»

وراحت تبكي في صمت ثم قالت: لا تصدنى يا راوول. أنت الوحيد في الدنيا الذي كان يمكن أن ينقذني من الشر. أحسست بذلك على الفور، فإن فيك شيئاً سوى وكله خير... آه. يا للحب... الحب وحده هو الذي أحسسني بالهدوء... ولم أحب غيرك، فلا تصدني.

ورفعت رأسها، ومدت ذراعيها بطول كتفيه وأحاطت عنقه ونظرت إليه في وجد ووله. وكانت نظرة كافية بحيث لم ير راوول فيها المرأة التي تتوسل وإنما تلك التي تريد الغواية والإغراء وتستخدم رقة عينيها وحلاوة شفتيها. والنظرة الرقيقة الساذجة والمؤلمة، فتخلص من الإغراء وأقصى عنه المرأة الفاتنة التي تعانقه وقال:

– هل تذكرين... ذات يوم، في الزورق، خاف كل منا من الآخر، كما لو أننا كنا نحاول أن يخنق كل منا الآخر. وهو نفس الحال الآن، فإنني إذا استسلمت لك فإنني هالك، ويأتي الموت غداً أو بعد غد. اعتدلت فجأة، وكل ما فيها ينطق بالعداء والشر، وغمرها الكبرياء من جديد. وهبت العاصفة بينهما فجأة فنقلتهما من الأمل والحذر إلى حالة جارفة من الحقد والتحرى. وعاد راوول يقول:

– ولكن الواقع أننا منذ اليوم الأول كنا عدوين لدودين. لم يكن كل منا يفكر إلا في هزيمة الآخر، وخصوصاً أنت، فقد كنت أنا الغريم والدخيل. كانت صورتي في ذهنك تمتزج بفكرة الموت. إنك قد حكمت على به سواء طواعية أم لا.

هزت رأسها وقالت في لهجة عدوانية: حتى الآن لا.

صاح: ولكن الآن نعم، أليس كذلك؟. ولكن جد شيء جديد، هو أنني لم أعد أعبأ بك الآن يا جوزفين، فقد أصبح التلميذ أستاذاً، وهذا هو الذي أردت أن أثبته لك إذ قبلت النزال وتركتك تأتين هنا، وعرضت نفسي وحدى لضرباتك وضربات عصابتك. وهانحن، كل منا أمام الآخر، ولا تستطعين شيئاً ضدي... لقد فشلت على طول الخط... فكلاريس على قيد الحياة، وأنا حر، فهيا يا جميلتي، اخرجي من حياتي. إنك غلبت على أمرك تماماً... وإنني أحتقرك.

رماها في وجهها بالكلمات الجارحة التي أوجعتها كضربات السوط امتقعت وتغيرت ملامحها، ولأول مرة بدا على جمالها الذي لا يتغير مسحة من الانحلال والذبول. وجزت على أسنانها قائلة: سوف أنتقم.

قال راوول ساخراً: مستحيل. إنني قلمت أظافرك. وأنت تخافين مني، وهذا أروع شيء في حياتي أراه اليوم... وهو أنك خائفة مني.

تمتمت: سأكرس كل حياتي للانتقام منك.

– لا يمكنك أن تفعلي شيئاً، فقد عرفت كل خدعك، إنك فشلت وهذه هي نهايتك.

هزت رأسها وقالت: لدى وسائل أخرى... تلك الثروة الطائلة التي حصلت عليها.

سألها راوول في استخفاف: بفضل من؟... ألم يكن هذا بفضلي أنا؟

– ربما. ولكن أنا التي عرفت كيف أتصرف وكيف آخذ. وأنت لا تجيد إلا الكلام، كما هي عادتك. ولكن كان لابد من عمل، وهذا العمل أنا التي قمت به. الآن كلاريس على قيد الحياة ولأنك طليق تظن أنك انتصرت؟ ولكن حياة كلاريس وحريتك يا راوول شيئان تافهان بجانب الشيء الكبير الذي تسبب في نزالنا، أي آلالف وآلاف الجواهر. إن المعركة الحقيقية كانت هناك يا راوول، وقد فزت بها أنا ما دام الكنز معي.

قال في سخرية: من يدري.

– إنه معي كما أقول لك، فقد وضعت أنا بنفسي الأحجار التي لا تحصى في حقيبة حزمتها، وختمت أمامي، وأنزلتها في قاع الزورق ثم أخذتها قبل انفجاره، وهي الآن في لندن، في خزينة أحد البنوك.

قال راوول بلهجته الساخرة. نعم. والحقيبة جديدة والأختام عددها خمسة بالشمع البنفسجي وعلى كل ختم الحرفان الأولان من

اسمك: ج. ب. أي جوزفين بلسامو. أما الحقيبة فهي من الخيزران المجدول وملفوفة بسيور من الجلد بصورة بسيطة لكي لا تستلفت النظر.

رفعت الكاليو سترو إليه عينين مذعورتين وقالت: إذن فأنت تعرف. ولكن، كيف عرفت؟

قال ضاحكاً: إننا بقينا معا وحدنا، أنا وهي ساعات طويلة.

- كذب. إن الحقيبة لم تفارقني لحظة واحدة من جومييج حتى مضيت بها إلى البنك.

- هذا صحيح. وأنت أنزلتها بنفسك إلى قاع الزورق. وكنت أنا في القاع في ذلك الوقت، فقد أدركت وأنا واقف أمام الصخرة المبقورة أنك ستمضين إلى الزورق بالجواهر، وتحاولين الهرب مني ومن البوليس بالرحيل إلى الخارج، فأسرعت إلى الهافر. وفي الساعة الواحدة ذهب رجالك الثلاثة لاحتساء القهوة في البار فانتهزت الفرصة واختفيت في قاع الزورق، خلف بعض الصناديق والبراميل. وفي الساعة السادسة أتيت أنت وأنزلت الحقيبة بواسطة حبل تركتها تحت رعايتي. وفي الساعة العاشرة أقبل ليونار، وكان قد قرأ في الجرائد

نبأ انتحار بومانيان. وفي منتصف الليل اقتربت مركب أخرى، وتحول ليونار فأصبح الأمير لافورنيف وأشرف على نقل كل ما هو ثمين من الزورق إلى المركب وعلى الخصوص الحقيبة التي استرددتها أنت من القاع ثم.. انفجر الزورق.

امتقع لون الكاليو سترو في حين استطرد راوول يقول:

- وأعترف لك أنني قضيت عندئذ بضع لحظات بغيضة. كنت وحدى ولم يكن بالزورق أحد، وبدا يسير على غير هدى ويتأرجح كما لو أن رجلاً ثملاً يسوقه. ولم ألبث أن خمنت خطتك والقنبلة الموضوعة في مكان ما والتي لن تلبث أن تنفجر.

«كنت أتصبب عرقاً. هل ألقى بنفسي في الماء. ونويت على ذلك وبينما كنت أخلع حذائى أدركت في سرور أن شيئاً مربوطاً إلى الزورق يرتطم به. وكان في ذلك نجاتي، فبعد عشر دقائق كنت جالسا في القارب في هدوء على بعد نحو مائة متر عندما وقع الانفجار.

وفي الليلة التالية، بعد أن راح القارب يتأرجح بي اندفع إلى شاطئ انتيفر الصخري، فألقيت بنفسي في الماء، وبلغت الشاطئ ثم أسرعت إلى هنا لكى أستعد لزيارتك أيتها العزيزة جوزفين.

أصغت الكاليو سترو دون أن تقاطعه في هدوء واطمئنان، فما سمعته عن ركوب راوول القارب ونجاته من الانفجار لم يكن له أية أهمية.

ومع ذلك فقد ترددت في إلقاء السؤال المهم، مدركة أن راوول ليس بالرجل الذي يخاطر بكل شيء لا شيء إلا لكى ينجو بنفسه. وامتقع لونها، وقال راوول:

– حسناً. ألا تسألينني عن شيء؟

– وعم أسألك؟... إنك قلت ذلك بنفسك... إننى استرددت الحقيبة وهي الآن في مكان أمين.

– ألم تلاحظى آثار شق في الجانب... شق بين عقد الخيزران؟

– شق؟

– عجباً... إننى لم أبق ساعتين أمام الحقيبة مغلول اليدين، فقد ثقبتها بطريقة لا يمكن أن يفطن إليها أحد بحيث إنك عندما تفتحيها ستجدين، بدلاً من الجواهر بضعة أرطال من الفاصوليا والعدس بما يوازي ثقل المجوهرات.

تمتمت وهي تحاول أن تحتج، هذا غير صحيح... لا يمكن أن

تكون...

أخد راوول من أحد الدواليب حقيبة أفرغ ما فيها في كفة يده... عشرين أو ثلاثين ماسة وياقوتة راحت ترتطم وتتلألأ وقال:

– وهناك الكثير غيرها. صحيح أن الانفجار منعنى من الاستيلاء على كل الجواهر وتبعثر معظمها في البحر، فإننى وقد شعرت بالمركب الأخرى بجوار الزورق، ورأيت من إحدى الكوات البحارة ينقلون ما بالزورق إلى المركب أدركت ما يحاك، فقفزت من الكوة في الوقت المناسب، قبل انفجار الزورق ببضع دقائق، وكانت النتيجة أن تبعثرت معظم الجواهر التي معي واستقرت في قاع البحر. ولكن ما بقى يكفي لكي أعيش عيشة مترفة حتى آخر العمر.

– هل أدركت الآن أننى قد هزمتك على طول الخط يا جوزفين؟ ستنصرفين من هنا وأنت مقتنعة تماماً بأنك لن تستطيعي شيئاً ضدي وأن خير ما تفعلين هو أن تتخلى عن كل دسائسك ومكائدك. سأكون سعيداً رغماً عنك، وكلاريس كذلك، وسننجب أولاداً كثيرين، وهذه حقائق لابد لك أن تتقبليها. وراح يمشي وهو يقول في فرح وسرور متزايدين: ماذا تريدين؟ إن سوء الحظ لعب دوره معك. إنك نازلت

شاباً أقوى منك ألف مرة. وأذكى منك بكثير يا صديقتي المسكينة... وأي ذكاء وأية عبقرية!... لم يفتنى منك أي شئ، وكنت أقرأ مخك كما لو كنت أقرأ كتاباً مفتوحاً، فأنت توليتنى ظهرك في هذه اللحظة، أليس كذلك؟... وأعرف تماماً أنك تدسين يدك في صدرك وتخرجين منه مسدساً، وأنك...

والحق أن راوول لم يكد يفرغ من قوله هذا حتى استدارت الكاليو سترو وفي يدها مسدس. وانطلقت الرصاصة، ولكن راوول كان يتوقع منها ذلك فأسعفه الوقت لكي يلوي ذراعها ويوجه فوهة المسدس إليها هي بالذات، فوقعت على الأرض وقد أصابتها الرصاصة في صدرها.

وأخذت نفساً طويلاً، وفتحت عينيها. وعندئذ، أحس إحساساً لا يقاوم بأنه لم يعد يريد أن يراها أو أن يفكر فيها.

فتح النافذة وأصاخ السمع. خيل إليه أن هناك خطوات تسير فوق الشاطئ ولا ريب أن ليونار تحقق عندما بلغ الساحل أن العملية اقتصرت على اختطاف تمثال، ولا ريب أنه أحس بالقلق على جوزفين فأسرع لنجدتها. وقال راوول يحدث نفسه: فليجدها وليحملها... ولتمت أو لتعيش، ولتكن سعيدة أو تعيسة فإننى لا أحفل... لا أريد

أن أعرف عنها شيئاً بعد... كفى... كفانى من هذا الجحيم.

ومن غير أية كلمة، ومن غير أية نظرة نحو المرأة التي تمد يدها وتتوسل إليه، انصرف.

وفي اليوم التالي مضى لرؤية كلاريس ديتيج.

لم يكن رأى الفتاه حتى ذلك الوقت لكي لا يثير جروحاً يعرف أنها شديدة الحساسية. ولكنها كانت تعرف أنه موجود. وأدرك على الفور أن الزمن قد قام بدوره فإن وجنتيها كانت أكثر توردا وعينيها تومضان بالأمل وقال لها: كلاريس. إنك وعدتني منذ أول يوم أن تسامحيني.

قالت الفتاة وهي تفكر في أبيها: بل هناك ما يجب أن تسامحيني عنه، فقد آذيتك كثيراً. ولست أطلب حبك فحسب، وإنما بحاجة إلى عنايتك وحمايتك. إننى بحاجة إليك يا كلاريس، لكى انسى ذكريات بغيضة، ولكي أستعيد ثقتي في الحياة وأتغلب على أشياء فظيعة في داخلي، تجرنى إلى حيث لا أريد. وإذا ساعدتنى فأنا واثق أننى سأكون رجلاً شريفاً. وأعدك بذلك في إخلاص، وأعدك إنك سوف تكونين سعيدة كذلك. هل تريدين أن تكوني زوجتي؟

وبسطت يدها إليه.

# الخاتمة

صح ما توقعه راوول فقد حفظ أولو الأمر القضية، وانفصل شركاء بومانيان، ولم يتحدث أحد عن كنوز الرهبان، ولم يعرف الجمهور شيئاً عنها.

وظل دور راوول في تلك القضية مجهولاً، وثم زواجه من كلاريس دون أن يهتم به أحد، ولا ندري بأية معجزة استطاع أن يتزوجها باسم راوول داندريزى، ولا ريب أننا يجب أن نعزو تلك المعجزة إلى الإمكانات العظيمة التي أتاحتها له قبضتا الأحجار الكريمة التي اقتطعها من الكنز، فإن من الممكن بواستطها شراء كل شيء. ولا ريب أن اسم أرسين لوبين اختفى هو الآخر، لأن اسم أرسين لوبين لم يعد له وجود في أي سجل مدني، ولا في مستند حكومي، وكذلك الحال مع

اسم تيوافرست لوبين. ولم يعد هناك قانوناً غير اسم الفيكونت راوول داندريزى، وقد قام تحت هذا الاسم برحلة خلال أوربا احتفالا بزواجه بكلاريس ديتيج.

وقد وقع حادثان كان لهما الأثر في ذلك الوقت، فقد وضعت كلاريس طفلة ماتت عقب ولادتها، وبعد بضعة أسابيع جاءها نبأ موت أبيها.

والواقع أن جود فرى ديتيج وابن عمه بنيتو غرقا أثناء نزهة بحرية. أكان ذلك حادثاً أو انتحاراً؟ كان ابنا العم قد أصابهما الجنون في أواخر أيامهما، وساد الاعتقاد بأنهما انتحرا. وأشيع أيضاً أن في الأمر جريمة قتل فقد قيل أن يختا صدم قاربهما وأغرقه وأسرع بالفرار. ولكن لم يقم الدليل على ذلك.

ومهما يكن من أمر فإن كلاريس أبت أن تمس ثروة أبيها ووهبتها كلها للمؤسسات الخيرية.

ومضت سنوات حلوة. بعيدة عن كل المشاكل والهموم. وبر راوول بأحد الوعدين اللذين وعد كلاريس بهما، فقد كانت سعيدة كل السعادة.

أما الوعد الثاني فلم يف به، ولم يكن شريفاً

ذلك لأنه لم يستطع، فقد طبع دمه على أن يأخذ وأن يدبر وأن يخادع، وكان بالغريزة مهرباً ولصاً ومحتالاً ونهاباً وقرصاناً ومتآمراً، وعلى الخصوص زعيم عصابة، فخفية عن كلاريس، ومن غير أن تعلم قام بمشروعات وأفلح في أعمال تطورت فيها مواهبه الخارقة.

ولكنه كان شديد الحرص قبل كل شيء على توفير كل راحة وسعادة لكلاريس، فقد كان يحترم زوجته، ولم يشأ أن تعرف أنها زوجة لص. واستمرت سعادتها خمس سنوات. وماتت كلاريس بعد أن أنجبت طفلا اسمته جان.

ولكن ذلك الطفل اختفى في اليوم التالي، ولم يكن هناك أي دليل يسمح لراوول أن يكتشف من الذي اقتحم بيته، وإن كان قد عرف من أين أتته الضربة، فهو لم يشك أبداً في أن الكاليو سترو هي التي أغرقت ابنا العم، ثم أنه كان قد عرف أن دومنيك مات مسموماً. واعتقد أنه الكاليو سترو هي التي دبرت اختطاف ابنه.

وبدله حزنه، إذ تعد له زوجة ولا ولد، انطلق في الطريق الذي تجره إليه كل تلك القوى. وفي يوم وليلة أصبح أرسين لوبين، ولم يعد

يتحفظ أو يجامل، بل على العكس انطلق إلى الفضائح والتحريات والوقاحة والغرور والسخرية. وأصبح اسمه على الجدران وبطاقته في الخزائن.

ولكن سواء باسم أرسين لوبين أو بالأسماء التي كان يحلو له أن يتخذها، وسواء اتخذ اسم برنار داندريزى، وهو ابن عم له مات في الخارج فسرق أوراقه، أو اسم هوراس فيلمون أو الكولونيل سبار بينتو أو الدوق دى شار ميراس أو الأمير سرنين أو دون لويس بيرينا، فقد كان يبحث، تحت كل هذه الأسماء عن الكاليو سترو وعن ابنه جان.

ولم يجد ابنه ولم ير جوزفين بلسامو أبداً.

ألا تزال على قيد الحياة؟ وهل تجرؤ على الظهور في فرنسا؟

وهل تستمر في التآمر والقتل.، وهل كان يقر في قرارة نفسه أن التهديد المستمر ضده منذ وقت القطيعة سينتهي بمثل هذا الانتقام الهائل وهو اختطاف.

كل الحياة التي عاشها أرسين لوبين، وكل مشروعاته الجنونية والمحن التي فوق طاقة البشر، وانتصاراته العجيبة وغرامياته العديدة

وأطماعه، كل ذلك كان يجب أن يقع له قبل أن تسمح الأحداث بالرد على هذه الأسئلة المخيفة.

وهكذا ارتبطت مغامرته الأولى، بعد ربع قرن من الزمان، إلى ما راق له أن يدعوها بمغامرته الأخيرة.

تمت